في سكني الوطن

محمد علي علي

في سكني الوطن
محمد علي علي
تدقيق لغوي :أحمد نناوي
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: 3858/2020
ترقيم دولي:978-977-6815-03-7



دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
Www.FaslaPub.Com

الطبعه الأولي يناير ٢٠٢٠



في سكني الوطن

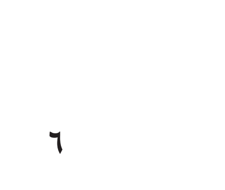
محمد علي علي





مُذكرات خَطِّية محفوفة بمخاطِر عِدة...

نسيم يُهدى من ليلٍ أسير.



وافِر الإهداء...

لطُلقاء الحُرية وذوى الضمير.

ما كان للمجتمع عُهر إلا أنه تغاضى عن جريمة تهتكه!

أُحيل قعيدًا لكلمات تتحدث عنى فى إنابة، فربما تكون هذه إصابة من سهمٍ مارقه نار لعدد غير محدود من الأوغاد. لا وجود للشمس إلا فى هدوء لحظات الظهيرة كى تُرمِم عظمى المُتراخى، يضربنى الليل بكحول ظُلمته وأنا أبحث عن منفذ لراحة أعضاء، وقوفًا على مساع حدود المعقل المُقاس على حجمى فى ضعف سِعة ونفاذ، أهيئ اتزانى الذى بدى يفِر من انحلال أقدامى التى استحيا عنها مبعث من حِس وشعور لتنبيه، كدليل على فُقدانها أو أن أقول دون رمز قد ضمها حقل اللامبالاة. أربعة وعشرون ساعة مُضاعِف فيها ما تبقى من عُمرى لغدٍ جديد، تتقاسم لثمان ساعات وقوفًا يستأجرها الليل الغنيم بسقوط أوزان البدن... من عِراك فى الحِمية وضيق فى النفس وخِنقة من النبض المُحيي للآمال، يتخللهُم صُراخُ ونبيح من غلاء التعرُق المُغرق لأنهار، مع هوية ضعف وغِلظة فى الإغماء، لتترابط أيدى وهى محصورة بعدم استسلام بعناق مع سِلسلة فى لِجام، تتواد حلقاتها حول عامود من فهوة باب معقِل يُلقى بنبأ عاجِل أن المُجرم قد بدى فى انهزام. تُعلن شفقة الضمير على حملى لأخذ مِنحة داخِل

حُجرة مُتجاورة امتيازية فى الظلام، إلا من برق صعق يتدلى على مُداعبته جرس إنذار للعودة والاستعلام، يغمرنى رتش من المياه من دلو يتراحم ثقوبه على إنزال، فيتراشق على رأسى سيل من القطرات وكأنها تُسقط على من السماء، تُفتح أعيُنى فى لِغام من فقد نوم لم أستطعِم أحلامه وزُرق ضباب يُستعلم به من إهانة امرؤ قد خان وطنه بنية دون سلام. تنقضى ثلاث ساعات تتلازم فيها مُناوبات من صعقٍ ولمسٍ بفحشاء يُضاعِفان من صمتٍ خام، لا ينبئ اعتراف مُجبر عن أخذ دِلال، بأن الفتى قد أقر بقلب نظام من كلمة فاسِحة المجال، إعرابها أنها لم تخل من مآسٍ وأوجاع على فُقدان حبيبة قد أوقعته فى غواية حُبٍ وعُميان، ملقى روحها الآن فى السماء من رصاصة أبرزت خلايا رأسها من نضِال، لإدانة وطن شهيد قد بادر فى انقسام، جريمة عصرٍ لا تُغتفر على مظلِم من الحُكام، يدينون الشعوب لكرامتهم لأجل امتهان، لرجوع مطاع العبيد كى تُوصف الأوطان. يأتى الصباح بلسانٍ جديد، يتراوح فيه فصائلِ من الإغماء من بطشٍ وركل قد قاربا للملل العُجال، لأخذ كلمة وتوقيع لأجل اعتراف باشر الأعوام، خمسة أعوام دون أربعة أشهر فى عذاب، من مكائدِ جُرمٍ وإلفاق، يبتعدان عن نص عقوبة فى بلدٍ من البِلدان. بعد قطع الوقت لساعتين يمضيان، أستيقِظ من دون نوم كى أستطعِم فى سلام، من

مأكل فاسدٍ لا يصلح لرعاية حيوان، ينهال لسانى على الخُبز الدنىء الذى استقطعته الشمس فى جيفة وصفٍ دون إعلان، يُبقينى حيًا مع بوادِر من الماء الباقى لاستماع الآذان، أقيم قعيدًا لأُصلى ركعتين مُتتاليتين، عن غياب فجرٍ وضُحى لم يأتيان، فيهما حمد وشُكر لم يخشعان، من ألمٍ لا يُفارق عقلى وقلبى اللذين يدويان، من بعد عراك طرفه اثنان، ينقضان على كبقية نحر فى يوم عيد يضحيان، دون بسملة أو تكبير أو إذعان، لأمر الصُراخ والبُكاء للكف عن البُطشان. ثلاثون دقيقة غير مُكتملة الأركان أحمل لها لنحر الظهيرة فى شمسٍ حارقِة لأجل عِظام تتعرض للإحياء من بعد الهشاش، تهيئة لعراك جديد يفوق مجرى الحال، أتوجس خيفةً فى رقِابة من الأعيُن والسِلاح المُهيأ للعنان، أكتُب فيهُما تحت لفح الشمس والحرارة اللذين ينهمران، على بدنٍ خامِر كان تحت سطوٍ من الأرجُل واليدين، أحكى قصتى خلال ثلاثين دقيقة فاصِلة المجال، من نهب رقِابة من الجنود اللذين يمُرون، حُسبان من تدوين جُملة تدين ما حدث لى فى سُرعان، لكنهم لا يعلمون ماهية الأحرُف والمعانى، من جهل عقل لم يتعلم فى صِغر نشأة ورعيان. أخفى على ظواهِر أوراقى رسوم قبل نفاذ الوقت واللحظة المانحان، كى أبعِد الشكوك فى مُهلة الدخول والعُزلان. على ما أبدو عوادًا أننى الآن قريبًا من الغُرفة

حالِكة الظلام، لأمنح وسائد أوراقى التى أميل عليها رأسى وقت الغفلة والنسيان، لورقة أو ورقتين عليهما على سبيل إكمال الأقصوصة التى تحكى ما حدث لى فى غير عجالة دون إلزام. وهذا اليوم قد فارقتنى منه نعِم لا تُحصى بحسبان، فالويل قادم ميقاته على سبيل من الغفلة والخيانة المجددان، لأخذ تعريف نشأة عن قِصة حياتى الباطِلة من السوء فى الفُحش دون عقد هوان، لأمر الروح التى احتضرت من بعد الضمير الذى غافل فى مشقة وبُعدان. فأنا ابن شارع خارِق للأذهان، أحيك مُؤامرة داخلية وخارجية كى تُهزم الأوطان، إضافة لارتكاب آثام مُغلظة مع قومٍ عِظام، استخففت بعقول أحفادِهم وسليلتهم حتى استفاقوا من بعد إثر فاحِشة بمعاونة خليلة من صاحِبة تُلازمنى دون فُرقان. أغيل فى أخذ مذلة من ضعف لم يُحتسب لُعمران سُمعة ومباهاة، كى أجلِب لخليلتى مُنذ الصِغر رفِعة من علو الرأس والمطاولة على قوم لازم أحد أبنائهِم على إعفائهِا بعد حُسن غفلة واستسلام، حتى فاض بفُحش لها من سيط نشر لفضيحة هزت والدتها حتى دفعتها للسقوط من العلو دون إجراء تردُد من نسيان، من ابنة قد رافقتنى مُنذ الصِغر حتى الكِبر الذى هوا فى انقباض، تحت رجِال بطش حافظين للسُمعة المُجِدة على قومٍ عِظام. فى غضون ما يقرُب من أربع ساعات أتنفح دم ساقِط من

وجهى دون غُفران، من ذنوبي السابقة التى ارتكبتها من أجل أن يعود للحبيبة شيء من النظر للحياة، بعد إيقاعها من عقار قد جلب لنا اللعنة دون تنبُؤ لإهدار سُمعة قد خالفت الأذهان. وهائنا أناضِل لنصر قلبٍ ضعيفٍ آخر قد تركنى دون اهتمام، مع أبى الذى لم يلق بصره علىّ من بعد دخول حلبة وطنه ورجاله الأعزاء، فقد خسرت واهبة الخلاص لى دون اهتمام منها على ما جرى لى من بعد عملية أسرى التى فاقت حدود الخيال، ومال أبى الذى لم يُضح كالعادة دون نظر لإنفاق. فليس لى أحد فى الخارج إلا والدتى التى تمكُث فى انتظار، لأجل عودة وجهى الذى فارق مرور يديها فى كُل صباح ومساء كصكوك غُفران، على ما أحدثه يومًا بعد يوم من أجل إرقاء قلبى عن الانهزام، وكُل ذلك كان للراصِدة لى لجهاد عفتها عن آثام الأوطان، إلا أنها قد فارقتنى دون اهتمام، لمشقتها على ما حدث لى من بعد النضِال، لكنى أستشعِر أنها ما زالت تأتى على مفارق من الأيام، ولكن العادة المُتبعة حين اعتقال فرد باهتمام، أن يكون حبسه انفراديا دون ملقى لعين من استوحاش. وها هنا أظُن أن دعوات والدتى تُبقينى حيًا بامتساك، رغم إبدال لون الجسد بزراق واسترقاق، إلا أن المتاعِب ما زالت لا تُحقِق قدرًا من نجاح. وبعد ساعات من صمت لا يشى إلا عن زفير لإخراج دم قد تغذيت عليه من رِفاقه فى

الحلق، إلا أن الجلسة سوف تعود غدًا لأخذ اعتراف غير الأنفاس التى تتداو فى كُل إبطال يد وملل أقدام قد قاربا على نفاذ الحِراك. وكاللحظة المعهودة قد حل المساء الجديد، بعد قضاء رحلة لاستفراغ الدم الذى باء فى الأمعاء على أقدامهم التى كفت عن نباذ، يجرونى بسلاسِل مُطبقة على قدمىّ، لأُحسن لهم الأرض ببدنى الذى لا يحميه لباس، من خشونة السطح ولوث الأرض المُطفى للعين على قريب من الإغماء، لأستشعر بلادة البول الغسيل على بدنى باستشفاء، من الجِراح التى عمقتنى حتى غاب وعى عن جسدى دون وِفاق. وفى منهل الضعف يستشعرون بعد نفاذ وقت دون إجراء احتسابٍ له أن القمر قد صاح برصد الغُرفة اللابثة فى خواء، يُزال عنى لبث البول من فاجعات من الماء تكون قادرةً على إيقافى دون اعتماد، لأُقاد مُجددًا من أياد حامِلة لأذرعى التى كفت عن رفع راية إيقاف، تأتى حينها الدنيا فى صورة ظلام غُرفة يُنيرها ضوء القمر والنجوم اللذان يبُثان من مُكعب صغير يطوله القضبان، يكون سبيلًا لى للاستغاثة بالنسيم الممدود على غير ثبات. أحيا بعد حين منقوص فى أخذ راحة لم يعرف لها قاموس على أياد ناكِره للاسترحام، لأتداوى بالوقوف داخِل مِحراب المعقِل الذى يُمثِل لهم صلاة خاشعة فى ذُلٍ وإمقات، لا أستشعر فيه غير انصباب العرق على الأقدام، مع معراج

صوت قد فاق حدود الأذان، يغيب عنى الوعى فى سُرعة وانقباض، بعد امتداد المحاولات لإيقاف نهض جسدى الذى عان فى استجلاب نظر يستمحيه دون أعذار. فهذا يومًا بليغًا فى الصِعاب على علم البلاد، فى احمراره نهك وسفك دون اعتراض، مع أبيضه المُنتمى لضحايا رحمه المُمجدون له براية سلام، فى خِتام سواد اللعنة الموجِزة لنهج الأوطان. لا جريمة لى فى حضر وطن معقلًا لأحفاده، فأنا ما زلت لبيث على الرغبات، لأنقِذ حبيبة سابقة قادها أوغاد، لفاحِشة لا تعلم جرائها عليها من غياب إدراك، انتهكوها وأعلنوا فضيحتهم بعد انقداد العقار على ذهِنها الذى رحل قبل إجراء احتساب، لتتخذ والدتها قرار انتحار، من فجع ابنة لم تعلم يومًا عن عراء أحفاد الكِبار. ما أطيب البداية حين يتعلق نشوئها ببوادِر من الحُب، وما أقبح انتهائها حين إجراء الحديث عن هزاِمه. فى مُطلق الأحوال لم يكُن الحُب يفسد لهوان أحد الطرفين من خلو فى التعبير أو غياب من تجسيد فعل يكون مدلولًا لشىء منه، فما الفارق بينى وبينهُم إلا أننى قد قادنى الحُب بجهالة من أمرى، وفى أنهم قد قادتهم نفوسهم بجهالة من الحُب. وهذا الفارِق العظيم قد بُنى عليه مكوثى منفردًا كسجين وضيع بعيدًا عن أعياد الجميع. لا داعى للشفقة والاسترحام على، مع أنهما صفتان يدويان بداخِل وجدان كُل مرء، إلا أننى أريد

أن أبوح عن الحرب التى تكبدتها مُنفردًا وكانت خسائِرها ميزانًا للنُصح الأخير لكم والتعديل عن جراء تقدُم هذا العالم على رؤوس أنقياء الروح التى ما زالت تقودهم ولو حبوًا ضعيفًا. فقد أوقعنى الغرام فى معرض الهلاك، من لجوء حبيبة راجعتنى بعد رِدة، لأستجلب أوجاعها بداخِلى بعد أن هزمها الجميع فى عراك الترك والنباذ، حتى والدتها لم تلقِ لها عُذرًا من نفاذ، بعد مشاع فضيحة قد أهدرت وضع الآمال، لتتجه نحو طرفٍ بعيد كان خليل خطواتها مُنذ البراء، فلم أكُن أستطِع أن أهرب بعد سماع الأوجاع، لزومًا لاشتهاء الحُب من بعد نسِيان! كُنت وحيدًا مُنتهكًا فى الانطواء، لا حديث إلا مع النفس ولا استماع إلا للأنفاس، قد ضاعت نصِف حياتى إن كانت على مطرح من الإحصاء، فى وِحدة بائسة لم يعرفِ لها استشعار من فرح أو ابتسام. فقد آلفت العُزلة عن اختيار، بعد إحساس أن العالم لن يهدأ من دون اعتبار للحُب. فما ظلمت أحدًا لكننى كُنت مُشيدًا فى نفايات مُراسِلات الأعذار، قلبُ رقيق لا يلبث طويلًا عن العودة من بعد احتراق. طائفة من صُحبة طالحة فى الفساد أتماش معها بعد انعدام خُلق وملقح من رجعة عنهُم بعد دُعاء تواب، استنفذت كُل خطى عن مشاهى النفس من الإغواء بتوافُر المال والسُمعة الماكِثة عن مجدٍ أخاذ، عرفتُ حقيقة السمع

بعد دواء الحُب وحقيقة الترك بعد داء نفاذه، فما بعدهما إلا مظلم من القلوب. لا قبيل من حُبٍ يكون أعمى دون بُصران، فالريح عاتية بعد فُراق يطول أعوام، تُذهب خلالها نبض القلب من بعد مشياع، عن ترك حبيب كان يُرافِق فى طول زمان. فى صِغرنا كُنا نروق لزُهر العالم المُفتح فى زهاء، حتى أحرقنا نمو أطيانه فى حِجاج من نفِاق وادعاء كاذبٍ لا يلحِقان إلا بعد كبر آثام. فالعالم أصبح يعِج بالأكاذيب، حتى أستخلص أصحاب الأرواح فى عُزلة لا يعلم لها ميقات، من ضيق عصر أصبح مُلازمًا فى الفساد، إلا أن الموت يقبض معلمًا من أرواح، لا تستشهِد إلا بالصِدق والأمان، من الأحاديث المُتلقية والأفعال المُبتدرة فى نية مُفتحة للإعلان، عن قلوب ما زالت تعيش بيننا فى ضعفٍ من إظهار، تنتظر أجل قادِمٍ لإشارة وداع، كأمى الجالسة عن حركة حبسها أبى بعد سماع لومها عن خيانته دون سببٍ لها أو شفاء رغبة من هُزلان، فالحُب من قبلها لم يطعن بعدها عن امتداد. إلا أننى قد طعنت عن نسيان حبيبة لى بغُفران، لأُقاد نحو طريق عواج، أخذنى خلف القُضبان. لم يظهر لى أحد مُنذ بعيد يُقارِبِ خمسة أعوام، وكأننى معصوم عن كِلفة من صِلة رحِام، لا يُشاهدنى أحدًا ولا من أحد أقرب على مُشاهدته إلا مِن خيال.. فعالمى حُجرة ضيقة يتوسطها معقلًا لمشاهِدة

الإذلال، يُحيط جسدى كلحاف يغوص البدن من برودة صقيع، أهوى داخِله فى غياب، يومًا بعد يوم دون عِتاب، وكأننى فى رِضاعة واجبة لغُفران ذنب لم تقترفه جوارحى عن انتهاب. ها أنا أذكُر لكم من دون عذاب، أتلقاه فى حبسٍ انفرادى دون مآب، عن مُشاهدة أحد يُذكرنى بحُبٍ لم يكُن يسلم يومًا من ارتياب. عنوان فشلى الوحيد أننى قد أحببت لبلوغ الدرجة التى كانت إزهاقًا لكل معنى لذلك الحُب. أحببت لعُلام التقرُب والحضور، من غِلال قُرب حبيبة قد ذكرتنى فى مُلتهم ووداد، بعد رؤيتها ذليلة فى عِصمة حانة وليدة لاعتلال الأجسدة فى استرقاق، حين سمح ظهورى المباغت لدى صُحبة عاقبتها الهلاك. أبدلتنى يومها باعتراف فاحشة عن ظُلمٍ وغياب، تحت احتشاد من نفرٍ انتهكوها بعد ذهاب إدراك، من عقار بلا طعم أو لون أو رائحة أعقبها بفُقدان اتزان، حتى طُرح للأسواق عورتها الحصرية تحت مهاب أعيُن باستفراد، ليُقفل باب قبول الحياة عن والدتها التى لم تهِب من انتحار بعد نمو فاحِشة ابنتها على خيلاء الجيران، لقد اعتلت ذات الحافة من العلو التى كانت شاهِدة على سقوطى فى رحيق الأنظار، حين كانت حياتى إشعارًا للحُب فى مظلم من ذات المُعترفة على التماسها لقلبٍ جديد كان قد أحل بسكن مجاور، بعد استيعابى لها أنها قد أخلت بى بمعاونة يديها ليد فردًا

جديد. لم يكُن يبيح اللوم لها للتراجُع، حتى والدتها أمام أعينها لم
تندم عن إخلالها لوعدها مع والدتى بأنها ملكتى لحين انتظار الأجل،
لأصفع الوالدة أمام ابنتها على مطرف من أنظار الجيران، حتى علا
الصُراخ والعويل بعد اعتلالى حافة الطابق الثالث لتسترحم بى سقف
غُربة عن إزهاق الروح. أغرقتنى الصحافة فى المشفى الذى أرقده
والبيت الذى عاودته دون سابِق حال. كان والدى يسخر بقلمه أمام
المُجتمعون فى صالون بيته العال، بعد أن أخذنى من حِجر والدتى من
إهمال، عن إخلاصى للطرف الواهِب للإبدال، وكأن الحُب لا يُفترض
أن يُلازمِه شخصان. كُنت قد بلغت عقدان حينها حتى أدركت أن
أعوامى لها فى مرمى من الرياح، حيثُ الباب أمام الباب، نرتفق
للخروج سويًا والإياب، فى محمِل عشرة أعوام، لم تكُن كفيلة لها
ليُطلق أبى مدفعًا للغروب عن رؤية أمى بالبُعد عن سكنها المواجه
للحبيب، لتظِل حياتى بعدها خاوية فى سراب. لمعت تحت جِلباب
أبى مع قومٍ عِظام، مع بقية خطف نظر نحو الأم فى وهدان، التى
مازالت تنصح لمنع مرور البصر على الحبيب الذى لم يمكُث قُربها
طِوال. فقد أخذت الحبيبة فرارًا بأيام، بعد انتحار الأم من راية
الفضيحة التى أعلنتها فى سماء المنطقة. فنحن مُتشابهان بوفق قدر
لم يخلِف عن الأنظار، عن مطاردة حِلمى للسعى عن بلاغ، فأنا

مُشتبه لقلب آسرنى فى خراب، لمضاعفة قِتال بفُراق لم يستبِق بلومٍ أو وداع. أنا ابن شارع أيضًا بعيد عن الأم فى محل إجبار، لا يستأثرنى أعناق زوجة أبى ولا دلايِل اعتبار، من دموع وعِشق مُنتهى لدعوى الأب فى إقرار، على أنها ترعانى فى حِمية من التربية وحماقة من الحماية الزائدِة لبحث مفسر عن كُل خروج. فهيا لا تعوض شيئًا من مرور أيد والدتى التى تُبيد مآثم من أنظار، لمرور عينى على مُفترق من النسوة الرقيقات المُرافقون لرفاع سُمعة ومُباهاة. رُبما تآكلت مع أجواء أبى لكونى أرافقه، لكنى لأم يغيب تآلفى على سواها. حتى مع الحبيبة التى أقرت بكُل شىء مُنذ اعلال، أشعُر بغُربة عنها كأننى ثمرة تدلت من فرعٍ مهال، طُغيانًا لملامسة بحر أسود لا يبرح فيه إبصار، من عزائها عن اقتراف الآثام. قد شاهدتها مِن جِوار صُحبتى وهى غير عالية فى جلوس من انكسار، فالوجه كان لا يخِف بُركانه لقبول أعذار، تلوم لى بعد فجعة من ظهور وإقرار، مع أحبه جُدد رافقتهُم عن شهاد، فهى طائفتى التى اغتالتها مرارا، بدءًا من فاحشة ثُم ابتذاذ، حتى تلى النشر والإرفاق لظِل مُجتمعى يجتمع فى فساق. وهاتئنا أقر لها من بعض قساوة من الإنذار، لطرد عزتى عن خيال أبى للتزوُج بإحداهُن. فهى كانت سليلة شريكه، يطوفان معًا للكسب من بعد شراك، لعقارات نشأة فى مُستقبل جديد، قد تكون عاصمة

الدولة للنشأة بُعدًا عن الانهيار. فقد أحسنت استقبال حبيبتى للتعرُف على الوجهة، لتأخذها معها مداد ما ذهبت وما قربت، لكنها لم تكُن تعلم أنها تُقاوِمها لغيرة مُمتلكة فى الأحشاء، لمعرفتها من خبر زوجة أبى أننى وفيتُ لها إخراج روحى بعد سقوط من رفعان. حتى تخلصت من تعقيدات الحُب بعد لمحان، لهوية حُبٍ قديم قد خانقها لتُقدِمها كضحية فى أمسية مُشتركة من أعيال، أرادوا بها ما شاءت لتُعاتبنى من بعد فساد، لتقدُم بحثى للعثور عليها عقب إهدار. لكن الحبيبة كانت قد جائت على ملفت من الأنظار، داخِل حانة ليلية فى عقر الدار، حين كُنت أصبحت مع أهجه من طيش الأصحاب، يهوجون بكُل نسوة من اختيار، لتصبح ذليلة من بعد اعتبار، فقد كانت صاحِبتى من بين الأخيار، بعد مجيئها بحثًا عن وفاد، لمُلاقاة حبيب قد غاب عن والدته فى مهاب من طيلة عُمر فى أزمان الأحفاد. قد راجعتها أمى بحثًا عنى من أجل البُعاد، بعد لوم عينى لها لنسيان الوعد وغِلظ القلب من ضيق استيعاب، لغُفران كِرار التنزُه مع حبيب قد غاب عنه الأخبار، فلا أحد يرعاها لوحدة شأنها بعد سقوط والدتها، علوًا على أنها كانت مُفاتنة لقمر السماء، فى ظِلال شوارع تكتنِف على شهد خبيث من الأنظار، فهذا المُجتمع لا يبدأ بالثوران، إلا بعد شِحاح من مُخدِر وملطِف من أجسام،

تأخُذ عقولهم فى إجماع، دون بقية يترامون فى أعتاب السياسة وصُنع التديُن مع بقايا أخطار، لأطفال شوارع يتلاقون تحت جُنح من أرصفة وخُردة من عُرباه، أمام أعيُن ساهِرة لمعرفة مصروف الغد الزاهِد من هدر اقتصاد، كتدابير احترازية عما يأخذه الغد من أخبار، فالمُجتمع حبيس فى مُرتسم توفير سُبل العيش ويُمنى ركيزة من احدى جوانِب الحياة. قد بعثتها أمى لى بعد إلقاء العِنوان، فى مهب بيت والدى العال، حتى استقبلتها فى غيابٍ عنى ناظِرة التشبُك والعُزلان، لأقر بجبى لها من انعدام، من إدانة والدها كشريك لوالدى فى مُستقبل الأوطان. رافقتها من بعد نهضٍ من إعلان، على أننى فى مُستهل سهرة مع أقوام، فكانت هى الضحية فى أمسية حالكة فى الظلام، بعد نهب خصال الحُب المُزعم منى والولهان، فى اختراق جزء مُقدس لجسد يعزِل صاحبه ساكنى الشرق بعد فُرقان. لم أكُن أعلم يومها أننى قد ارتكبت جريمة من دون التماس، لبعث أمى بها من أجلى بعد مفارقتى عنها فى زوال ثلاثة أعوام، غيبيًا عنها من مُشاهدة وإبصار، لوجهها الناشِط لى بأعذار، من مساكنة أبى فى كنفه وامتشاط أعماله الهوية فى انحدار، عن مجمل الخير والأزهار. كُنت شاهِدًا على براثنِ الفُحش والشعلان، لبث فضيحة جديدة تنموا بأطيان، عن ضحية وافِدة يغيب عنها مركز من إعلان. فالليل

جامِح بأهوال، لمبادرة طرف عاكِف لإخلال، من نسيم حُب وعطف قلب برأ عن احتمال، لقُرب فاحشة أو مُصغِر من حياءٍ خال، لكُل عِف ومُآدبه لانسلال. فأنا ابن شارع خارق للأذهان، لم أتلق شيئًا من تعاليم ومباركة من نصائِح واستحسان، لبُعد العلاقة بين المشرق والمغرب اللذان لا يلتقيان، فلا رابطة للزوجية ولا مسارِع من احتساب للذُرية التى تعيش بين تنازُع أحضان الأزواج. لم يهِب لى قلب غير حنان الوالِدة العاطِفة بُكل مُشاكرة لخطوان، رغم البعاد عنها وضيق المؤازرة من اقتراب، لكنها لا تهاب من طيش فتى لم يستطِع أن ينهى حتى الحين أحلام لياليه من ضِعف خيلاء. إلا أنكم جميعًا تهيمون علينا بقبيل من العُرفان، عن سير السلوك السوى دون إلقاء توعية أو إلهام. فعصر الكلام لا يشى إلا عن خراب، من بُعدان الأفعال ومصارفه اللاقى من زيغ الحديث الهاو من كُل معان. فلا أستطيع أن أتجار فى خطوات وأنا مازلِت أتنشأ لثبات الحراك، كطفلٍ يدلو بالوقوع من إخلاء اتزان فى ظِل حشدٍ مُجتمعى يستغيثه لسباق الجرى فى لمحان. أغيلوا عنى أوهامكم فى مُستبعد، فلا أحد يبقينى إلا الروح المُترددة فى اقتياد، فهائنا السجين أكون وضيعًا كحثالة من الذباب، تطاردوهم عن إفساد النِعم ومجاوره المُتع من حصاد. ليتكُم حاضرون أيها السمع الكِرام لترون كرم الضيافة،

لكننى سأنقل لكم على نحو ظاهِر للنِعم التى تتلاحق على. ها هوا الظلام يأسرنى بنسيمه الممدود لكنى لا أستطيله بأنفاسى من البُعاد عن البشر، لحد النوم الخال من كُل مأوى يُضيق أعضائى ولا يُغير على سوى الضجيج الذى استبعدت عنه، عقلى يلوجه الوهم بإيقاع اللاوعى الدائم، من ضريبة السُخرية عن كُل حقيقة مُبتثة للعنان. أوجه رياح الخدم تفوح مستقرعة من بدنى، من الرجوع لذلال عقود العبيد من هوى المُستملك، طعامى الخُبز المطروح حجمه، تُؤاخذه أشواطًا من ألحان الأمعاء المُتمالِكة بريح البقاء، العيون تشفى الجِراح فى انسلال دموعها، فى ظِلال المحاجِر المُستبيئة من غاشية النباذ. سمائى سقفى الهابِط بأسفٍ جلى، لا ملمس من كلام مُستمع غير رنين السلاسل والأوصاد المُتشابكة فى رحيها البالغ فى التعقيد، لا ميزان عدل سوى الهبوط من كُل درجة للتالية بإنهواء، لا شُكيان فى استجابة سمع ولا مرضخ لسماع النبض الوطيد بطبول الحرب، عالمى يُشكل فى جُدران سميحة لخيال مُلدغ بغيوم، ولا سير للخلايا سوى البحث عن مفر للهروب، فقراتى يواسيها الألم الممُتد من بلوغ الأجل، ومرمح نظراتى لا تواعِد سوى الخوف الرجيف، دمى يلتئم جريانه بكيد الصبر الساعى لبوق الإنذار، من بلوغ أجلى القريب. ما من أمل فى إيصال دُنيا قد هبطت معيشتها، ولا واقع يُصور

لاستنزاح الماضى بالقريب الآت، النبوءة هابطة من سحائب وليدة من ضِيق عصرٍ غِمام، تُسقى العقول بأصالة الاستعباد ونفاذ كرم التحرى عن مُستقبل رِحام، تُشهِد وتُسمع وتُجسِد للمُتلقى فى إنهلال، عن مقتل حُر يعيش واستباق مخطف من وعيد، أسترجع حقيقة غائبة تُنبِت لعالم مِثال، لكننى انقضضتُ فى معكل من الآثام، ولا يزال نبيح ظِلى يُؤرخ رقصةً فى عِتال، عن طير يروى جناحيه سيرةً فى عُجال، لا المسجن يُؤتمن له، ما دام للعقل باب من الخيال.

ذكرى نائية

(١)

هذه الجُملة الأولى وإن كان لا معنى لها، تُحررنى من قبس الظلام المُخلد علىّ. أعتقد أن البُعاد عن البشر غنيمة ذات سعة ودفء لتحقيق السِلم الداخلى. ولذلك أرجوا تجاه نعمة النفى والنبذ الذى أعلنها على البشر فى موطنى، أن أكون على تمام الموافاة لشُكرها. فعند مجىء إلى هُنا، كان إسدال السِتار عن رؤيا العالم لأبد حياتى. فلا سبيل لى سوى الترقُب، للخروج من مسجنى الظليم. لذلك أجد أيها المُشاهدون بأعيُنكم، أن وحدتى هذه مُفتعلة، لإبعاد أعضائى وجوارحى عن حاسة الاجتماع. ما كُنت أظن أن أبى سيترُكنى هكذا، وهذا الظن الشغوف لم يكُن لمكانته المرموقة ضِمن أصحاب الوطن

السابقين، بل كان لحنان ولأصالة الاتصال من غير صُلبه، الذى هو من غير ذات العظام. لكن قرابة الادعاء لم تمنع من سوء العقاب ممن هُم على منوالى. لا أجد جُرمًا فيما ارتكبته بلسانى، ولا حين اعتراضى حين أباد الوطن أحفاده، فقد كان من حقى أن ابوح بتقرير مصيرى، الذى لم يستظِل حتى الحين فى ظل رؤية الوطن. لكنكم كما تستمعون يومًا تلو الآخر بأن للوطن أصحابًا معنيين. ومن هذا الواقع الغائب عن أحقية الحياة، قد قُرر مصيرى هُنا، فمنذ حق السكنى الواجب لى فى حمى هذا الوطن، والذى ما زِلت فيه ضيفًا بليدًا بصمت، لم يُقرر خروجى بعد، من تمشية بسيطة كعفو رئاسى بمناسبة سعيدة، رغم إلحاح والدى بفضل منزِلته لإدراج اسمى، للمسامحة والعفو عن طيش شبابى يستدرجه الحماس الفارغ أمره، لكن الأمر لم يسر بعد، مما كان الجلوس شعارًا أزليًا يعمه الأمل الضعيف مما أحدثته. وفى هذه الأيام المُستخدمة باستنزاف من رصيد عُمرى المكتوب، لم تتعرف رؤوس أصابعى فيها على الحروف، ويتباعد كُل هذا عن مضى ستمائة يومًا فى مسرج الظلام، غدوًا وآصالًا، إلا من مُستظل شمس الظهيرة التى مازالت تتقوى بمشعلها ضلوعى المُمزقة من الجلوس والانتظار. وفى هذه المُدة المُستقطعة من حبسى كان قد توقف الحِس والشعور تمامًا مُتكاملًا

عن ذِكر شىء من خلال عملية التدوين، ولم تكُن هنالك من رغبة أو سِحر مُسمى للكتابة يُعينه رادفوه، كى يلتهم عينى لأنظر عما تشكلت الكلمات به، على الرغم من أننى أهوى الأحرُف لدرجة بعيدة كانت تأخُذنى بالذهاب بها للأصحاب العاملين فى مصاعِب الحياة، لتمجد عنى كلماتى أمامهم، ولكى يطلقوا بريقًا من النظر بأننى أحمق تآكلت مع الوهم حتى صِرنا رقيقين فى مُستعبد الحياة، أى أننا كُنا لحظة نطوى بها آلامهم كمتطفلين حالمين بذهابٍ بعيد. ولم أكُن أتشرف بتلك النظرة مُنذ أن جِئت إلى هُنا، فى مسكن الوطن. وكُنت فى سابقى مع والدتى، أنتظر بعد تحضيرى لمغالب المساء على تهيئة المقعد الذى سيتشرف بمُنال اللحظة، لحظة كتابتى المعهودة، التى كانت تأتى من خمسة أشياء، من واقع الحياة المطرود منها بقرارٍ من نفسى، ووهمى الواقع على كما يطلقه الناصحون الأحق بالرمى بالرصاص، وخيالى الحابس عن ذِكر فائدة تهِم المصلحة العامة، وقراءتى لنظرات البشر لى، وليست قراءة تلِك الكُتب والروايات المُستنجدة بحيوات عديدة لبعض البشر الواسعين حظًا، الذى أحلم كُل يوم بتحقيق فيضًا منه، وأخيرًا بخبرتى الواسعة الذى يدعيها الجميع بأنها مُجادلة فذة لا رحيق بها. إلا أننى قد بدأت أكتب أمام أعيُنكم فى مزاولة مُتكررة لعننًا للملل وللضيق الذى

بدى داخِلى، والذى قد قارب على دفعى للانتحار، رفضًا لهذه الحياة، وليس كُفرًا بالخالق الجليل. أرى أعينكم تهُم على الآن، لأقول حديثًا صادقًا أو كاذبًا، فى كلا الحالتين، أنت تُريد أن ترى وتلتمس، لتتشفى وترتفع، فأنا لستُ مُكابرًا، ولا يهمُنى تدوينًا منك، أو حُكمًا يأسرنى فى غيابات الجُب بعد أن تقرأ وتشاهد بعيونك الصابرة لداعٍ أو دون داع، صدقنى، أذهب ولا تلتفت كى لا تعى ما حدث معى ويتم أسرك بأحقية تامة، لأننى سأكون وسواسًا يقهرك طيلة ما ترفُض من أشياء وتتوارى جبرًا منك على أن تبوح بها للهواء، لأن الكذبة العصرية المُمتدة الذى نعيشها الآن، هى أن الصواب لم يعُد له مجالًا للنفع، والغلط لم يعُد يلفت من انتباه أحد. لا داعى لذكر شىء، وما الفائدة حقًا لخلق مصدق من الحديث فى عصرٍ كذوب ومُخادع بأصحابه المتملقون بكل بُعد خارج عن قدر الاستطاعة والاستيعاب. لا كنى، أتذكر حين انهزمت، واستشكل على الخلق بأفكارهم الخالصة عن كُل رحم، ورُقى قد غاب عنه مُلازموه. نعم يا بنوا البشر، فقد أصاب عقلى الجنون، وهذا قيدكُم بى أجمعين، وراية بصائركم نحوى فى كُل مخلق من رؤى، وهكذا تستعينون، كى أضمر وأشيب فى ريعانى اليافع، ويأخُذنى الموت عن ذِكر ما أسلبتموه منى، لكننى ما زلِت أكتُب وأحيا مُنفردًا مع السطور التى ستأخُذكُم إلى

ما تتوجسون منه خيفة.

(٢)

كان قد يتم تجديد إقامتى على نحوى مُتتابع، وقد امتد هذا التتابع حتى جاز عن ستمائة يومًا من الانعزال عن كل حدث، حتى نما الأمل على حدبة صدئة من الإقطاع لأمر مخلاة الحُر، حين صدر الحُكم الأول والأخير بإنهاء أعوامى القادمة فى شائك العُزل الطويل. كبقية حياة خارجة عن الحياة.

ضوى حينها عقلى عن ذكر مُحدثة خيال أو جانب من الوهم يؤازرِ حِدة الحياة، أو حتى بحديث مع النفس يكون مُتجليًا على الواقع، مما كُنت فريسة لأمر الصمت بأن يغدُر على مُستقرى، كى أبوح بتلعثُم فى الحديث من القليل صادرة والكثير المُمِل الذى يُرجح معانيه الحارس

المُستظِل بثبوتٍ تام، الذى يهرع ببوح حين يأتى ميعاد القادمين المُنعدمين. أتناقش مع جسدى المُهيأ لقعود، وأُخيل نفسى مع العامة برسمٍ ضئيل ينتمى للحائط بحياءً مُخيف، ركونًا للمُستقبل المُتهدِر وضعه. كان ثمة نعمة من جانب الراعين الذين سمحوا بعد توصية بسيطة من وضع أبى فى أنهُم منحوا لى زيارة مُستسقاة عن تسجيل مُحبط لأحد بأن يرانى، والنعمة كانت تتجدد حتى تخليت عنها بقدوم ورقة وقلم يُخصمان من ميراثى الباق الذى دفننى به وهو على قيد الحياة، كأنه يقول، ائتمن نفسك سيلحقنى الضرر. الآن لا أدعوا لكم بكلمات رغم ما أُقلم، ولكنى قد كُنت اعتدت على أن يزورنى الخيال المُحب لمجالستى فى نضر الظهيرة. إنى أشتاق للعِطر الذى لا يُحبس عنى، فكانت قد ذهبت برضى وإنعام رغم ما حدث. فروحها كانت كفيلة بأن تمحوا الولع من الطُغيان الحديث الذى كُنت لا ألمح على منشأ منه، إلا من بعد أن ذهب إدراكى بمشاعرى معها. وقبل لحظة تقييد صُراخى، كان قد تم عدة جولات من الإبادة الجماعية المزعومة لتطهير الوطن. ولم أكُن لأعثُر عليها حقًا، بل أننى قد نقبت فى الرمال الساخِنة للعثور على معلم خفى لها، ورغم ما قيل من أن أمر الأجساد قد تم نفيها لمحالِك عديدة، إلا أننى ما زِلت أنتظر عِطر حيائها المكشوف لى، بل أننى ما زِلت مُتأكدًا

حتى هذه اللحظة بأن الوطن لا يخون أصحابه، لدليل وحيد، من أنها كانت موطن حقيقى للعيش معها، وخُلاصها المروِح باللين، من أن وجودها كان رِحلة للوجود ذاته. وبعد هذه الأحداث الأليمة والضريحة لكُل مسمع إنسانى، كان قد أنتاب عقلى تساؤلات عديده لكيانى المُشخص بالسوء دائمًا، كما يدَّعى البشر المُلَّاك للخير، وهذه التساؤلات ما كان ينبغى لها أن تفر دون تحقيق إجابة حازِمة بقطع لمثال تفكُر، فما الذى أفعله رغم كُل ما فقدت؟ فأنا لم أعُد أهوى النساء كالمعتاد، ولا الزيف الشهوى المؤقت بجوارهم، ولم أعُد ألتمس بمرحم لصاحبتى فى السوء، ولكُل وجهة أنتمى لها، بل لم أعُد يهدأ لى مأنس حين أراها رغم أنها رافقتنى لانحدار هزيل، فضلًا عن قمة الرغبة الأبية فى الجلوس معها، فهى ما زالت كما ينبغى بجسكُم الذى لا أراه، اغتالتنى دون ادعاء منى وأطرحتنى بغير سقوط، لثقبها الذى أعمانى، ولفيضها الذى أغوانى، ورحيقها الذى أحيانى. أشعرتنى بلهفٍ دون ادعاء، وغمرتنى بكيد لم يُسبق عهد له، أصابنى بغمام حتى توقف الإدراك، ولحفنى بحنان أعطرنى فى سيل الغُرباء، بغشها الشرعى فى وطئه عصر حملنى معها، نحو الهلاك. لم أكن أتقيد بمدخر بصر أو نور يمنعنى من السير معها، تجللنا كُل القمم حتى بلغنا الانتشاء، بشفرتها الحادة عن الجميع، وطلائع شعرها المموج

بشغف فنٍ أعزل عن تكرار، لم أستطع ولم أكن أحتمل تذهب برقعتها لكُل غال ونفيس من إغواء وحِمل لقصد التجربة، بإجبار حُلق فى براثن الفاحشة. أعطتنى ما تملُك وأخذت ما بقى من أضلعى كى تحجُبنى عن استجابة أمر لغيرها. لعنتنى سبعًا كى لا يقدِم على أحد أو أن أميل لغمضة سِحر يؤوينى بذنبٍ لا غفران له إلا بالعودة التى لا أراها لمد بصرى نحو امتلاكها مُجددًا. كذنب مُتكرر يصعب الغفلة عنه لخيال شُهى بها ووقف مداده عن غيرها، من شهوة لم تنطفئ بعد رغم كحاله أبصرى من الضعف وارتخاء أربطة الركبة باستشعار دائم، كُف عنها. لم تمنعنى أصوات جوارحى من اقتراف ذنبها، ولم تخُشى على الاعتزال من محاسنها المُستبدة على الضُعفاء، الذين أحاطتهم بعطرها من بعدى كما حدث لحال شخصى الضعيف، لأجلبها وأئسرها بعقلى وهى لا ترى أنى أحكى عنها للزاهدين على هذا الحال، والمتطوعين كمثل الرغبة التى ستكفهم على وجوههم بأسفل دركٍ فى جهنم. كانت الثانية فى مرح القلب والعقل الذاهب لمهلك مُحل لصاحبه، وما زالت تعنى لى الحُمق الأنيس به، على الرغم من كُل فتن قد أقامتنى لحين الحال، إلا أننى قد مللت من زهو الأجساد التى كانت مطمع عن تتابُع أثيم، حتى طُفى إشعار القلب عن ملمس لوجود الحُب بداخِله. فجميع الأشياء المعهودة فى السابِق أصبحت لا

تُثيرنى، ولم يكُن هُنالك من طموح مُستنظر لها، بل ندم قد تجدد بدوافع عديدة، ونية غير مترددة كانت قد ارتابت من التعود الأثيم. إلا أن الشيء الذى تغير على نحوى عظيم بداخِلى ولم أكُن أتعاهد عليه يومًا، فقد طُعنت بالتآكل من الداخل، كنظير من دعوة أحد لم يعُد له وجود، كان قد أضفى على قلبى التطهير والتمنى للاعتزال عن كُل سوء يُلاحقه، من مجاورتى للمستحسنة بى، الذى أخذها المُجتمع عن فيض هلاك كانت قد أبقته اللعنة، لتهرِم نبضى الذى يدعى الحُب. أرتفع حالى الجديد فى خضم الكظم، بعد أن حاولت بأعيُنى الرافضة بأن تتلاق على مُختلف ضحايا الوطن الأحياء بابتسام، قبل أن يقِر ذويهم على حدث انتحارهم المزعوم، كنظير للعثور عليهم! انفردت بكُل جسد طارح عن كُل محيا إلا الابتسام، بحثًا عنها مع أعمه بعض الجيران الوارثون للخير دون تفكُر لما يبدُر لوجهة أو دون، غير الأقارب الذين عاقوا كُل معلم يُستدل عليها، وهُنا كان قد تولد صوتًا ثائرًا ينهش على مُستقر جوابى عن الحال، لا يريد شيئًا إلا أن يكشِف عن مصارع السوء التى ستلحق من نبيح الكُتمان والتراضى العزيل. والذى قد تم ترويضه على العامة الكرام الحالمين بمحيا هنيء ومُصاحب لكل استقرار، دون تفنُد لما يجرى من أمر الهلاك. قد بطشت بكُل ما أقابل، حتى الصاحبة التى طُردت عن

حياء غير عابر عن ذهاب دون رجع. أنقض على الجميع من الكِبار الخليلين مع أبى للمصالح المُشتركة، والذى ينمى عليها المُجتمع من فرض رسوم دورية عن ذهابٍ بعيد، حين أشهرت بجريمة الوطن فى عواميد عِدة. إلى أن نهشوا بمستظل ترك أبى لى، بفضل العورة الذى اجتلبت وتم إسنادها، وبفضل ذهاب خليلة السوء بخونٍ فصيح دون وجه من عتاب. لكن مكابر أشخاص الدولة الذين أشهرت بعورات أبنائهم لم يدعوا مجالًا للهروب لشخص لديه مخابر خفاياهُم، وإن كان له حامٍ قد شاخ من فعل سليله. أرضخت تحت إذعان الجنون المُصاحِب لنزع الاستقرار حتى التبست بى عدة جرائم لا مجال لإعرابها تحت نصٍ ما من مواد عقوبية الفرد داخِل أرضية الدولة. كان الأمر غريبًا حقًا، فثمة ذئب قد اندس فجأة فى ألفة مُسالمون للخير، وعليه أن يتم جرفه مهما كانت درجته فى غُرفة مُغلقة شبيهة بمرعى حيوانٍ أليف على كُل وضع ينبغى ألا يكون، مادام للوطن أصحابًا معنيين. أعلم أن الذنوب لا تزر على الغير كما أخبر العليم الخبير، لكننى اكتسبت حُبًا من طرفٍ قد ذُهب به، لا يعدوا بأن يكون حُبًا فقط، بل إدراك لقيمة الأشياء ولبلوغ حقائقها، وهذا لم يكُن ليتم إلا بالتعافى من الغفلة التى أطمست على إدراكها المفقود، لأنها كانت حليمة بالحُب رغم غواص مساوئى التى لم تُكسب لها

من الحُب شيئًا. لم أكُن يومًا مهدى مُطيع، وكيف أكون وكُل شىء كُنت أفضى عليه جانب من الإباحة العارية عن الصِحة، إلا أننى قد طُعنت فى حُريتى فى ظِل آخرين يأتون بكُل شىء موجب للعقاب واللعن، وصدًا لذلك الطعن كان قد كلفنى البقاء هُنا، وكُنت أعلم أن هذا معهود فى موطنى، حتى امتثلت لمجارى الواقع حين حدث ذلك معى، فالمجتمع يُبرأ جرائمه بنفسه ولا يُعطى مُبررًا أو حقًا لرد هذا الجُرم والادعاء. إلا أننى لا زلِت أكُتب أمامكم وهذا لم يُكلفنى شىء، وإن تم الطعن فى مواقيت اللحظة الخفية المُنكسرة بخيفة لأجل الكتابة، فلدى عقل بحوزته مهالك الأفكار لكُل نظام خارج عن الواقع المعيش. لا سياسة لى فى حلبة الوطن كبقية الرجال المُهذبون فى أرائهم وغير المُهذبين، لكن لدى فِكر أقصر وأبسط من ذلك بكثير، لدى عقل يقول لى أن وطنى لم يعُد لديه أنفاسًا باقية ليحتضِر، مادام يلتبسه أشخاصًا أكثر منى سوئه. تغيب عنى إمدادات الشمس لكن بدنى لم يتنازل عنه انصباب العرق الغسيل، كحامِل لذنبه. لم أعد أذكر ما فعلت بقدر ما أذكر أنفاس والدتى المعدودة من حين الاختطاف عنها. كيف حالها الآن دونى، حيثُ أنها قعيدة من أمدٍ ماض، ليس لكبر سِن أو طعنًا من الزمن على هيكل جابه الأعوام، بل كان مؤازرة المقعد المتحرك من هوى ضليل

اكتسب صاحبه مبلغًا من القسوة، حين طعن بها أبى كطعن أنفاسه لمجرى الهواء حتى سقطت من الدرج الطويل أمام أعيُنى فى مشهد ذليل يُرجحه نُضجى الآن بأن الدفع للسقوط كان أمرًا بديهيًا كاعتماد لتبرير الخون الغير لائق وضعه. وكل ذلك كان لصد اللوم المُستحق لقلب أمى الرحيم، والتى تنازلت بعد ذلك عن كل وضع لا ينبغى لها أن تكون عليه، بالهروب.

(٣)

تركنا أبى، للبحث عن عنوان جديد للحُب. أمُى لم تكُن كفيلة بإعطائه ما يلزم لسد أدنى أمانيه، حيث إنها قعيدة بمُستلزم نهره لها، وهذا كان لزوميًا عليها لتهيئة ما جرى وما سيجرى بعد الحين. كان يتوجب منى أن أرجع لها مُجددًا، لسكنها فى موطن أبيها العبق بالأزمان على مدار العقود، الذى ينجلى لميدان طلعت حرب. وسط البلد، التى كان بها نمو مرحلة الطفولة المُسترقة ببقاءٍ وحيد فى حِجر والدتى. آنست البراءة روحى الشافية بها، حتى صِرنا فى مطلع الغُلمان، كُنت أسيرًا على ترداد مكتبة والِدها الكانِزة بسفح الأجداد ومأوى العقول المُستظلة بأحبار الماض الآخذة لمُستقبل لا تجوبه الحروب.

حملتُ ثقافة أبقتنى على نعِم السلام واستدعتنى على إحراج كُل مقامٍ رفيع من مكاسِب العقول الشافية بوقع الحياة، مما كانت منافسة الجيران والأصحاب المُؤازرون لتفرُدى على إبقاء ما بقى فى خاطرى، حتى تصيدتنى أهواء النفس بما حملت من انهزام وتعثُر قد استطال على الوحدة والمكوث عن مضاجر الحياة، فى ظِل استهلال الضمير الذى أنطلق بعد العتاب إلى التوحُد مع مُستقر ظِلى الأنيس، مما زاد من وضع علاقاتى سوءًا، الذى لم أعد أرى من مكاسبها إلا شيئًا واحِدًا. شافنى الحُب، بلُهب مشاعرى المُستذكرة مع مجاورتى، التى كانت تمكُث من بعيد قبل أن يأخُذنى والدى لبيته العال. أخذتنى العناية مع أمى جِوار البحث عن قلب الأمس الذى بعثتها لى لتُبدى بخبر وخيف. حالى السابق فى مشاعب مشاعرى التى اتصلت بمن كانت تُجاورنى ادعاءً للقُرب، حيثُ الباب أمام الباب، الذى رجعت له بتعمُد نظر لمُلحق من كانوا يسكنون خلفه. كان الذهاب لمحبب سكنه الكبير الذى يُماثِل حال درجته وتطوره الحثيث بعد أن أصبح مُتنازلِا عن مكرم والدتى بسكنها المُورث لها. وهائنا قد رجعت بعد سنوات عصيًا مُتنازلِاُ عن أجواء لا قِبل لقلبى بها، مع كبحًا تعمُديًا لكبرياء أبى وزوجته بالغة الحنان المُستعصى على القبول، مع فُقدان عهوده لى بالعثور على الحبيبة الذى طال من بعد الاعتراف،

والذى بقى من عهوده كعقاب لعدم إرضاخى له، نفقةً حادة على قلبه بموجب الرعايا. جللت بحثى بعِظم عن جيران الأمس حتى وُجه لى على الترحال من مفشى فضيحة قد تركتها فى سماء المنطقة. فلا مُسبب لى لما جرى عليهما، حتى أستسلم لِما يقولوه مخضرمون بالمنطقة، الآوون بشرف...

(٤)

كان الحطام كبيرًا، مما زعزع شعورى بقلبى عن ملمس لوجود الحُب بداخِله. فلقد رأيتُ العيب المُتداول كعُملة صعبة يستحيل نكر أنظارها، للإيهام الذى يلقح ويُراود أفكاركم عن عطائه الكثيف، فلن أكون من بعد هذا اليوم الذى حدث فيه قطع الوصال مع البشر مُناصرًا مثلكم، فكل ما أستدعيه من تمنى أنه ينبغى على أن أحارب أوهامكم وإن كان على قضمها فى فمى كى أهوى اللعنة الكاذبة بالطرد من أمر الحُب الشاغِل لكُل امرءٍ مُنعم به. أنظروا لوهلة واحدة فى معابر عِطره وأريد منكم وأنتم تقرئون هذه السطور التى باحت من أفياض كُتمانى أن تنقلوا لى عدواه الصائدة لتنتشلنى من محلى

الوحدة والعُزلة الجانبة عن كُل ما هو مُصحِح للنهل به. تسخرون الآن، وتتقارب ألسنتكم على القول بأننى مريضًا بالجنون المُزمن حتى الانتهاء، حين أشفى للانقياد للحُب المُزعم. يا للعجب، من المُتكلم؟ صوتًا ثائرا بعد فراق قد طُوى على الجميع، سأحكى لكم بإطالة وامتثال لأمره تزيد على بث الشاشات فى كُل موعِد وحين، على نحوى جدير بإفادة أن روحى لا يحق لها بأن تنموا مع روحًا أخرى. لكن الصوت الثاِئر قد أعدم داخِل غُرفة بجوانب حاذقة فى نهر أعضائه من الضيق، فقد ساعد المُجتمع على تقويمى لذلك لم يلتمس لى العُذر ليبُج جسدى داخِل انارة النقاهة الساعية من أجل حِفظ السلام وحجب التلوث المُضىء بإحيائه، من صوتى الثائرِ عليكُم. لقد بدأت أمضى لذكراى السابقة التى قد تشعثت لخطوط لا أعلم مجراها على تغيُر حالى ومعالمى التى قد بدت للآخرين الذين لم أراهُم فى شِق العناء حقيقةً. حين كُنا صِغارًا صببتم داخل محاجرنا نشوء العالم المُستقر، وبعد أن أصبحنا نعى حقيقته باكتفاء صببنا عليكم اندثاره الباق إلى أجلٍ لا نعلمه. أراكم مازلتم متمسكون بعهدته كى تحيون على نحوى أصبح مملًا حقًا، ويدعوا للشفقة والسُخرية أحيانًا كثيرة، لعِظم الإيمان والتصديق بكذبة كانت مُقدسة على مر العصور والأزمان، جميعكم حالمون فى أمر الحُب بطريقة أو

بأخرى لم تكُن تستحق بمرور الخيال عليها قبل أن نُجسدها، لنستعين بعد ذلك بعُنس عزيل إلى الأبد. بلا جدال أو حتى بدرجةً من المُناقشة، أنتم كاذبون لأنكم مازلِتم تكتسبون الأوهام ليلًا ونهارًا، فمفصل القول الذى قد يكون مُجمله أنه لا حياة دون الوهم المُؤازرِ، وقد وجدت هذا الوهم فى أمر الحُب المدعو كيفما حدث معكم. إنى الآن مريضًا بعُزلة جبرية، ومكاسِر أنفاس لا تنتمى لى، وقلة خاطر من نبضات القلب الخفية بعورة غير مستورة، أستشعِر جريمة قد ارتكبتها فى داخِلى، وأستحسِن سند لإعدام لا ينتظر التصديق عليه، فأنا المُشهِر لأقوام حميدين، ولأننى قد خبت فى الحفاظ على روحى التى فارقتنى دون إرادة منى ودون مبغى للترك والإقطاع من أحد خفى يرمى على ذلك فى دواخله، من نظرة حقد أو انجرار لما يُعادى ذلك ويتطاول لإفشاء جمال اختلاقنا الزهيد برحى فى كُل خطوة، ومسافر أحلام ورؤى غير بعيدة لاتصالنا معًا. كُل ما أستطيع أن أتذكره الآن، أننى قد أحلت فى قوائم الطرد من رحم الوطن من أجل أن يبقى الوطن المنشود بإرادة غير مُستخلصه فى إبقائه، الجميع قد عتى على حتى نفسى التى رضيت بذلك من أجل حِفظ هوية ينشُدها قلبى ليلًا ونهارًا، حين كُنت مُحررًا لأمر الحُب قبل أن يتم تسليمى للعناية الفائقة فى أمر التقويم والتسوية

الصحيحة التى تنبغى أن تكون حاضرةً فى هذا الوطن المعنى بصوتٍ واحد. وبيد أننى أخليت طرفى من أمر الحُب، إلا أننى مازلِت باحثًا عن إسنادًا لتصديقٍ له، من ذكراها، قبل حلول أجلى بنفسى بقرارًا مُستقرًا على السقوط مُجددًا، ولكن حين تسنح لى الفُرصة لن يكون هُناك من مانع أبدًا، كى أرتمى من العلو البارح، بفضل صوتى الذى لا يحتشِم بأحشاء رأسى. سأحرر لكم الآن فُراق من أبقتنى رغمًا عنى فى إيصال أمل كى أعيش، لكونها معى. كُنا على قيد الامتلاء، نرثى العالم بجُبنا ليستقيم، الزهور خاشعةً فى أوصالها حولنا، تتهامس علينا بما نتحاكى، كى لا تضمر بغيرة الامتلاك، تُردد وتشبوا علينا بالنسيم الذى يُصاحبها كى تشجُبنا لما تشتاق، تسعى جاهدةً كى تُهلِل بأجنحتها كالفراشات، لتعانق وتظفر لما يبعُد من اختراقات، العالم يظمأ لمرتدينا بالأوهام، وكان الحُب يحجِب كُل قدسٍ قد حال دون المنال. وكما كُنا فى معزلِ عن الجميع، فلم نستظِل مع أحد بانجراف من حديث أو حتى بتلامُس من نظرات إلى أن تبدل كُل شىء خلف بُعد مستطيل كان قد جاوره احتراق من فشل العثور، بقرار مُصدق بإزهاق روحها مِن قِبل سكون العوام وتحت إشراف نُظم المجتمع الحديث وعلى رأسه كان ضوء كافة المُنظمات الحقوقية والمجتمع المدنى بأكمله، ليتم تطهير كُل ملجأ يدعوا لغير الوجهة المنشودة.

اخترُق رأسها، ولم تُلق عُذرًا مُؤتمر، وحينها كان قد طُوى على كُل حِلمٍ لى بإلهام مُختصر.

(٥)

من نواحٍ عديدة كان إخفاق البشر فى مُحاولة فهمنا دون كِلفة. لم يعُد لى حاجة للعصيان. لكنى أعتقد أننى مازلِت على ماهيتى، وهذا شأنى دائمًا رغم إغواء الوطن فى استدراجى للوصول لعتمته. لكنى قد بقيت لأجل حياة بُعدًا عن تلِك الحياة. أما هى، فقد بقت لعُهدة من التماس قلبى بها، ولكن المجتمع لم يعبُر بأروقة تاريخه على ذكرى جريمته بالأمس القريب. لكن ذاكرتى ما زالت حاضِرة لتلوم بكُل ضيق ما زلِت أستشعره فى مسجنى. فى ذكرى الأمس، المفضى على غير بقية بأملٍ من سلام، وقبل أن يستهِل هذا الصباح بألسنته، كان قد تعالت الأسلحة بسخاء دافع لبدء تطهير كُل ملجأ يدعوا

لغير وجهة منشودة عن أصحاب معنيين لبسط استقرار، ارتطمت القلوب، واستوحى عقلها على انتهاء، كانت تحتضر حين كانت ترصُد بعدستها، بُعد الروح التى كُنت أُعاتبها من بُعد اتصال، وكأنها كانت تعلم أن الحين قد بادر على الوداع. ترحمت عن قبيل كلمة لأفهمها حتى بدت تُلقِى بالخفاء، من مُكالمة غير محسوبة، وكانت ذكرى ما قالته، أنها كانت تأمُل أن تُزهِق أُكل الوطن لأحفاده. أعتقد أنه لم يحمِل الوطن شىء كتشريف لوجودها، إلا أنه قد حاق بكُل سير لإلهامها على الذهاب من دنسه، وهذا كان أحقية لها وللآخرين الذين يعلوا عن مقام ذلك، لكنى، كُنت فى واقع العيش مع الدنس، وكُنت أرغب فى الذهاب به، وإن كان بصوتى الذى سيحِل نهايةً كإيمانٍ ضعيف لملاحقة مآسى الواقع، ظللت كالسفيه المُندس أدعوهم لحمل أغراضهم إن كانوا لا يهوون اللعن فى مقابر مُظلمة سأعدُها عليهم لأغراض كثيرة، والذى سيكون مُجملها الخلاص لروحى من محشد مريض عن التحرُر. لكنهم انقضوا على بمُدعى الجنون أمام أعيُن والدتى، حتى تكابر كبريائى بزُهد التعقُل الذى كان مُتعاف عن كُل حاضِر أثيم. كُنت لا أدرى إن سلمت شيئًا من واقعهم، فحينها كُنت سأكون قد كابرت حدًا عن موسع الغباء. كُنت أسأل وأجيب، إن كان لديكُم واقع إلزامى على قدرًا من المعيش، فأهلًا

بكُم لهاوية الواقع المُنحدر عن كُل أحقية موجبة، أما أنا، فلدى خيال أسير بكُل واقع لا محل لوجوده، يحكمه الصوت الثائرِ عن كُل هراء. حتى أذعنت لحُكم الإعدام الخف على موتى بسبيلٍ بطىء، إلا أننى ظللتُ أكتُب وأناوِح بقلمى، أنا فى الحُجرة الحاذقة بى، ولا يزال الصوت الذى كلفنى البقاء هُنا، يأتينى، أيها الآمرون بالصمت عن كُل مدى مُتحرر وغير مُتحرر، لدى نصيحة غالية كى تقطع من الشدائد وتُتيح لبسط حل فورى لغايتكم، انزعوا رأسى كى تفصِل عنى خلاياى وأرتاح من ثورانها على واقعكم المعيش. فواقعكُم كان يحمل لى بضع من الأعراض التى تحتاج لتشخيص شامخ، بصوتى الثائر.

(٦)

لم أعِ حتى اللحظة حصانة أبى المُطلقة التى حُجبت عنى، وكأنى قصدت غير السبيل التابع للهلاك. لكن الذى لحقنى قبل تجرُع الكأس المُماثلِ، صوتى الذى تدافع إلى من العدم، الذى تفوح بآلام عُزلتى التى اجتازت عن كثيرة أشهُر تكاد تكون أعوامًا غير مجازية من رفع الحياة عنى باقتدار سلب واستخلاص لعذابٍ آت.
مازال هذا الصوت لا يبدأ بضجيج الإيهام إلا أثناء مخالب نومى وعند الليل الذى يأتينى بالنسيم، ما زال يُنازع رفضى ويتقوى على من ضعفى، وأحيانًا يأخذنى لجولة إلهاميه للخارج ليُرينى بُرهان ما أسمعه وما أبصره بتنهُد فى مسجنى، لا صاحب لى فى السجن غير ظِلى

الذى يمرح بأوجه الحائط الحصين بى وكأنه أنشأ لحال هيكلى الغير مُستقر، لا مبعث إلا من قولًا واحدًا لطرفٍ معدوم مشكله معلومًا نبرته من عظِم التكرار، "لديك زائرِان؛ الورقة والقلم". وحين لا أبغى الخروج يقصدنى الصوت لرحلة للخارج على صفيح من الوهم، بحثًا عن النسيم لتنظير حياتى وإن كُنت وحيدًا منبوذًا عليه من الجميع، يُمثل لى هذا النسيم إعادة طاقتى التى فرغت لأرجع بعد إبان جولتى المنبوذة، وأسجِل ما رأيت من الإيهام المُستحلك عن ضبابية الواقع. وهائنا أسجل نفسى به على جدران الحجرة الحاذقة بى، الذى لم يبق فيها إلا شِبر لضعف الإيمان بمعالمى الذى استكنت عن رؤيا لها. ها هوا رأسى المُعتدِل بمسام جوارحى، وذقنى التى يتلاحق عليها تبخُسًا من الشيب المتوارى خلف ضباب شعرى، وعينى ساحِرة السواد، الذى مازال يغوط فيها عالمى الخاص الذى استوحشت المكث فى رحابه، مع أنفى العود النحيفة من سمن الدهون عليها والذى أحتمل بأنها تُرى على مشكل من الهيبة من طبقات الشارب الذى سيأخُذ ما ينظُره، شفتى المتوسطة رحى البرودة، كان يعُمها الثلج المُعاقِر للشراب، وأذنى المستحدثة بسماع الصوت الذى يخور منهُما ذاهبًا لعُمق أعماق عقلى الباطِن. فقد خُلق هذا الصوت بداخِلى من مُقدر الأشياء حتى تقاسم منى حين كان الكُتمان مصدرًا لنمو أعضائى

الناشئة حديثًا، وبفضل ثورته على الغير، تكبدت العُزل هُنا، عن البشر، لمخالق أسباب، أنشأتها من فيض خيال مُستخلص عن كُل واقع، فأنا مازِالت أحمقًا فى حضر عبيد، أدافع عن رؤية حُرة لاتخاذ طريق، وأحمى قواعدًا سُنت بإرادتى، ومؤنسًا بتفرُد عن الجميع. ظل هذا الصوت وما زال يأتينى عند التشوش على الغير، عِند طغيان أحدٍ على قلبى الهف الذى يُلوى من نبضه كلمة لا يرمش أحد عليها عتابا أو حتى من وعى أو تفكير حين يُطلقها، كذلك يجتمع بى هذا الصوت فى انطوائى على نفسى وتراطم أنفاسى الخفيتة التى تأكُل من داخلى الهش الباهِت الذى أصبح أرضًا بور لا ماء يُحييها ولا هواء يُذهب جفائها، من خيانتهم وبُعدِهم الغير مُفسِر للعقل قبل القلب المُتنازل من أجل أن يحيا ويستمر من أجلهم، لقد رأيتهم مُنذ أربعة أعوام وضواحِل أيامًا مُمِلة، حين كانوا يرموننى بالجنون المُستعصى أمره، ويبرحوا بملامحى التى لم تُستشكل يومًا بنظرة تعُدهُم فى مأرب الخون. حتى الذى أتيت بفُستان لها كى تُعِد لحفل ختامًا سوى، بقرارًا خصيصًا لقلب هواه من شراك يرصُده الرِبح المتتال، دون الذين يفوقونها جمالًا عاتيًا من ملامح آخِذة وجسد مُتناسِق تنشط له الأعين الفاسِدة التى لم ترع العِفة ولا منزِلة الكرم التى بين يديها الغير متوفر للمُعذبين دون ملجأ من المجتمع والحال الواقع من

الناس. فى كُل يوم ما زلت أصبح كما أمسى مُفكرًا عن شىء بدر منى دون حِس من نسيان أو غفلة دفعوهم على تركى، وكيف كانوا يبعدون وأنا قريب من القُرب الذى كان يؤازر ما يُفكرون به، لقد هلع عقلى وجن من كُتمان الجميع حولى وتجاهُل تواصُلهم معى، حتى جئت للمنظورة بقرارًا يحكُمه الإجبار من والدى، على الذهاب لها لتحديد حفل ختامى عن المتاعب بالزاوج، ليمنح لى تمويهًا مُعتمدًا عن ليالى السائدة مع رُفقاء السوء، وقطعًا أزليًا لمُرشدة قلبى الأخرى على العُزال، لأننى أرميت قلبى فى عِبء المُندسة بأسهُم أبيها، ولأننى أيضًا أسلمت للحُب المُزعم لغير وجهة لم تكُن منشودة له، فضلًا على الخون، باعتبار أننى كُنت أمرح مع صاحبة الطُهر فى مسعاها لأمر الحُب الموجب للخلاص. الاثنان لم ينتسبا لهواى المُستعصى عن كُل خير، حيثُ واحِدة مِنهُما لم يكُن لدى معها نطِاق للتوقُف، من فرط الحُب الذى قد باعدنى فى حُضرتها عن كُل جهولية.

(٧)

أمرتنى والدتى بالنسيان، وترك الغرور على من سكن فى أوصالى. كان يجب أن أرجع لدائرة الأصحاب لمعرفة ما حدث لهم. لكن أحدًا لم يتشابه لى على ذكرى معه، ربما قد أحالهم الوطن لوجهة بعيدة أو أن منهم من استعر بكبريائى حين كُنت أستمع لأنفاسى الخفية فى رحم أجدر غُرفتى. مما كان ذهاب الخلد للمستأنس بوطنى مع ابنته التى تتعايش على إغواء الأذن للهجرة المُحببة لبلدها التى لم ترها. انتظرت الصباح بعد العودة الطويلة لأمى على مهل، صوت فيروز الذى ينبع من مُقابِل شُرفتى حتى ضُربت خيوط الشمس على بواهِر الأرض خارطة على أعيُنى بمشيع رهيف أحن رأسى الذى راود أمسى القريب،

احتملت بوقوف متواترٍ لأغلق أبواب الشُرفة التى كانت تُعرى ضلوع والدتى بسِحر الليل وخواسِر حركات الصباح الصريرة لمسمعى. صوت السيارات كان يعطب سكون خلوتى، والتى كانت راصِدةً لى من مخاوف أبواب الشُرفة أوقفت منابع أفكارى. بدُش بارد أيقظنى من الحِلم، محو ذنوبى ونسيان عوارضى بفعل الندم وكرم العلى القدير ومسامحة من أظلمت. أخذت بأذون المعدة التى تتغذى على الأصوات، بعد بحثٍ وتنقيب أنهيتُ على النزول، قيدت هيكلى برداءات مُتعددة حتى نحيت ملامحى مع اتصال مظلة الجاكيت التى تقبع على، علمت أن أثر نظر المجاوِرة لى قد ذهب من حركات الصباح النشطة، التى حجبت سكون الليل الذى كان مثيرًا بالضوضاء. ظل المكان كما هو مع اختلاف بدائل الوجوه التى ترمى نحو زمنٍ بعيد لقبول مرصد من ذكرى. لا بدائل من التحية ولا تعطُش للترحيب لى، الجميع يجهل منبوذ المنطقة فى رحيق الماض، بأفكاره الثقيلة على التفهُم. ربما لحيتى الفارعة تخون ملامحى، إضافةً لحداثة كبرى الذى تفهمته من أوقفتنى وأنا فى أوزار التشعُب، لم تغب عنى بملمس وجهها الذى ما زال يبدو كقرص الشمس عند سطوعه، قابلة للحمار من خجلٍ أحدثته بوقفتى، لا أهِم بتلاق على كفها الممدود وهى تحمل شغائل معدتى الناشِدة لمستكن. حتى خُلفت أمامها بعد

تساؤُل جدير على البُعد، بإشارة منها على الخطو لمسرع قلب والدها المُتعطِش لى. كُنت أبدو وأنا أعرج عن قُرب الوجوه، الذين أبادلهم بسلام مُلتمس من ترحابها على المجىء، كطائر خارج عن سربه المنهوك. ارتضيت على الوقوف لقاطنى الممر بصمت ابتسام حتى كُلفت من أرجلها الهاربة نحو العمارة التى تحجن بمنتصفها، حينها كُنت قد اكتسبت ردود أوجه باتت تحُثنى على الوصال من بعد انقطاع غياب. حملنى المصعد معها وسط اندماجى مع لكنتها المصرية المُكتسبة على غير غنام، وأنا أحتضر من معاوِد الخضار المسترسل بأوراقه على نسول كفيها الذى يشجوا مع كيس الفول الجاهز للتحضير على المآل، بملامح رنانة بالشيع أضاءتنى بالترحيب وسط تفاهيم عن قلمى الذى توقف صوبه على مناشر مدونتى التى لا أذكرها، وعملى الذى لا أجده مع أبى، وبالتى كانت ترعى انطوائى بحنان مُتدفق ينظُره أعيُن الجيران. أجلت إجابتها بالدخول فى محضر كراكم والدها بهواه، آمرة لى قبل أن أجيب عليها بأن أتولى استيقاظه وأحضر له الطعام لضيق وقتها الذى يبرح عن بدأ عملها، ولحرفتى التى لا أعلمها فى إحضار الطعام بميقاتٍ سريع، اتجهت عنى بلسان صامت لم يعُد بأخذ خيالى على موطنها، فالفيحاء بالسطوع كانت تُرشدنى على الهجرة وتقوى علىّ بألسنتها غير المُتحضرة باللهجة

العامية لتشجعنى على الذهاب لأرض بلدها الذى غاب عنها والدها ونسيها بحضرة وطنى العزيز عليه بذكرياته التى تُدفِء رؤية المستقبل المُنعدم، أقلق على من يجالسوها من توليها لبرنامج التشجيع على الهِجرة السويسرية، فلربما سنخوض حربًا نوعية لتجديد النسل الحاضر بألوان الطبيعة المُثلى. تركت لها عم إلياس لتُحسن إيقاظه بهيكله المتقاسِم فى نومه، متأملًا عُمق أفكاره بالصور واللوائح المتصلة على جدار المفتح المُشرق بفسح الشُرفة الطالية على الحياة العملية، خلف وجهة غُرفته التى تصُد مع غُرفتين متلازمتين تبعدان عن الصالة الرحبة وغرفة الاستقبال التى تأمُر بالذهاب لطعامها الذى تركته لى. اتجهتُ نحو المطبخ بسابق مجىء فى زهو الشباب، تاركًا باب غُرفته كى يعصف معها بالحركة بيديه الحاملة بمسنده دون تعب إن أفاق بمسلكه المُستقِل عن المُساعدة. أيقظت مشعل الغاز ليلفح صفار البيض حتى حضرت بفطور متأهب بنشاط الروائح التى تنجلى من وعاء غير مديد خفيف على أرجله الحامِلة، تركت ما أحمل بوداد على ساحة الكمود المخفى بشرائط العقاقير المُندلعة عليه، مُنتظرًا لرجوعه الذى غاب فى مدٍ من السرحان، ليقضى على الإيهام بسارق قد داعب فى مخابر خفاياه. أيقظته بى على مخوف لطعون أنفاسه الهشة ببهتان لا أسمعها، ليُنيبنى بمحلك خفى مُخدر بالرؤية التى أهزمها

الضباب، باحثت عن العدسة لأوقف تلويح يديه على لحيتى حتى عاد بصره وإدراكه حين أوقعتها تحت مقيد الظلام الباحِث عنها، ضمنى بقبلة مفاجئة جعلتنى أتقرب منه فى عِناق إلى أن سخر لحالى الذى لم يعُد كطبيعته "فُراقها يُضو يك" أصرت عدم البوح مُساعدًا له بالجلوس لإيقاظ ملامحه غير المُكتملة، فمن ربانى وعلمنى بضوء قيم تحُث على المسامحة وتجلى القلب لزهور الحياة كى لا يحنيه اليأس عن كُل عاطِر بآمال بعيدة أو قريبة، جعله يحفظ معجمى الخفى دون بوحٍ واستسلام لأحد، رغم بُعده عن طريق العقائد الذى ما زال يدرسها فلم يجعلنى أستطلع ما يقرأه، كى لا أكشف سِحره من نصوص كتابته الغير طالع عليها أحد، عكس ما كانت تفعله والدتى معه، من أخذه بمباعِد كُتب غائبة عن وعيه راحِقة به لرحلة بحث ويقين لم ينشأ ظاهِر منها بعد. فكُل ما قالته والدتى لتفسير غُربته أنه "شخص لا يملك إيمانًا بوجود الخالق الأعظم وفى نفس الوقت لا يملك قناعة بعدم وجود الخالق الأعظم". تركتها لتتولى عقاقيره التى تسقط إحداها على حبوى كفى، حتى أخذتنى الذكرى لاستحقارى له من بادئ ذى بدء حين جهلى به، فكان الحدث ذا سيط وأذاع، من هجومى على عجوز ناصح يستوطِن بلدى بحنان ماض، لم يبتدأ ردة فعل لمكانة من أحمل ألقابهُم. لتحين العُزلة المُمتدة بلا مشاهدة

للهواء أو حتى لهزيع صوت ومشعل إنارة يُضىء للظلام كى يُطمئِنِ والدتى. لم أكُن أُدرك ما فعلته مع هذا العجوز، الذى رمانى بالأسوأ على مدار أزمان المنطقة، كيف لى أن آخُذ عُكازه الذى يتكئ عليه، وأتركه يسير بهيكل مُتلجلِج لأجل ساعِد اتزانه، الذى بيدى، لم أقبل نظراتهم حينها واندفاعهم نحوى غير عابرين للذى مررت به، كان لا مانع لديه من سوءاتى العاجَّة بصرعٍ يُصاحبها وأباحتها ببوح أعظم، لكنه كان يرى أن للأفعال عواقِب أخرى، فقد تُذهِب من صوره المجتمع وحياء أبنائه، وهذا ما يُحدثنى عنه طيلة بوحى له، ويُدفعه على البقاء هُنا "صورة المجتمع وإن كانت ذكرى لا يمحيها أصحابُها بالموت ولا الفُقدان ولكنها تنمحى بصور جديدة تقطِع ما كان وتأصِل بما لا يحق أن يكون" وكانت فعلتى قد ضمرت منها الأفئدة القريبة بى، فعندما كنت صغيرًا، كانت تُصاحبنى، ادعاءً للقُرب، حيث الباب أمام الباب، نسير معًا للتعلم، ونأتى معًا وحيدين، ظل ذلك لعشر سنوات، حتى صدقت من أقوال الآخرين علينا بأننا أخوات، صدر ذلك من المُعلمات الذين لا أستلطف منهم إلا القليل، لا أدرى حينها أين ذهب أسم والدى المدعو من قِبل أمى، ولست ذلك الطفل المُتطفل الذى يجاورها أينما خرج من محراب والدته، أراودها بالسير لبوصلة ذهابنا سويًا، وهى كذلك، حتى جائت لحظة

قضاء استنزاه الصيف، فى مرح بعيد، لم أشعر بغُربة حين ذهبت، ولا بحُزن من بُعدى عنها، لا أدرى شيئًا لكى أتذكره، إلا الحادثة التى كانت سببًا فى صعود كبريائى نحو القمة. ربما تعاليت على عناد إبليس للإصغاء بعدها، لأمر الحُب. وبعد مرور المُسترح القليل، جئت لأجد قلبها ويديها يُعاقران الذى أحل بمن يترصد لواهبة الإحلال. كان رصيدى المستخدم من الزمن فى هذه اللحظة فى أعتاب العشرين عاما، أى أن العقل بدأ ينضج والقلب أصبح خبيرًا فى أحاسيسه، كانت هى كذلك تصغرنى بأيام لا تشفع لها بأن تقسو على بمدفع، لاضطرارى بالبُعد، لم أغلق باب غُرفتى إلا بعد أن اقترفت ذنبين فى حق نفسى وبحق غيرى، كانت كافية بأن يتناولها أبى بقلمه الذى يُعاهِد الحروف، ليسخر بابنه أمام المترددون فى صالون بيته ذات مساء، الذين استشعروا إحراز مشاعرى بصدق لما تدعونه بالطرف الآخر. وكأن الحبل مُتصل يرمى بطرفية على كُل اثنين. لم أقبل لأمر المتطفل بأن يمسها وهو يودعها، رغم أنه يصغرها ورغم أنها تناستنى دون تذكُر. منعتنى أمها لأصفعها وهى حاضرة أمامى، الناضجة التى بكيت بثبات، لذهاب مكانة والدتها واهتزازها أمامى دون اعتراض أو دفع لحق الرد والتقويم، اعتليت السور لألقى بنفسى من طابق ثالث على سقف عُربة كان لطيفًا بى عن إزهاق روحى بدماء جارية

نادمة على اللحظة والمشهد الذى رأيته منها. ستقولون هذه حالة خاصة، قد تكون مُعقدة لقصر فكر أو ما شابه، لكن الأم العاقِلة التى لا تختلف عن قلب والدتى لم تكُن تمنع ابنتها بالمرح بقلبها فى الغدو والآصال كيفما شاءت وأينما أرادت. كُنت مُناصرًا ومناهضًا له حتى اهتزت والدتها أمامى ولم تلقى ببلوة على، إلا بالصراخ من أجل إنقاذى، حينها كُنت بطلًا للحُب، أغرقتنى الصحافة فى المشفى الذى أرقده والبيت الذى عاودته دون سابق حال. كُنت أحمقًا غافلًا بتداعى لقفة أحاسيس ومشاعر لم تجبها إلا بمكالمة أخيرة لم يكن محسوب فيها اعترافًا بحُب. ولكن الرجعة دائمًا لن تكون مُماثلة لسابق الأمر، فقد بدوت ناضجًا مُكتملًا بأمر القلب وما يتبعه، فقد حق استحقاق بلوغ الثلاثين فى مسجنى. كُنت لا أسقط بعدها، إلا بلذة أرغبها، وبرياح تنطلق لما أحتاجه، اقترفت كبائر بإصرار وعناد يهودى، لأقتل الشغف الذى ما زال يلحق بقلبى إلى الأبد، حيث لا إنعاش للقلب إلا بشىء ملموس أراه. الذى أخذها المُجتمع كانت تعلم بالذى أخفيه، لكنها كانت تُصر كصاحبة المرصد بمجاورتى، كى أقع لها وأندم للأعمار التى ذهبت دون رجعة. كانت تعلم هذا الحِس والشعور، لكنها لم تُكمل رحلتها التى كانت تضع لها محطة معينة لتنتشلنى كعبد غافل عن أمر سيده، من فيض هلاك أذهب

بها المجتمع. وكُل شىء قابل للتبديل، إلا عنادى الذى يتجدد مع الأيام، هائنا كُنت أرى أصحابى البعيدين يتشبكون بلفعة زمن قصير، لأنظر لهم أمام منزلى ويديهم ممدودة لأخذ عقار يداوى ما حدث. ها هوا واقعكم أيها البشر، تريدون أمرًا بزحام أمانى لتندمون بعودة ضمير. مُعظم ما جرى شبيهًا بالعبث، باللحاق نحو مُضغة ترونها نعيم، ادرسوا حالات الطلاق، فمن بين عشرة أربعة منهم يحجمون ببكاءٍ عويل. ألا يحق لى أن أهاجم، ما زلتم لا ترون، هل السِحر باق، ساطع، يأخُذ لعميان. أرى أنكم موهومون، وترفضون التكذيب. الحُب إنه شىء مُقدس خُلق للقلوب وليس للعقول التى لا يُمنح لها بأن تُفكِر به. النشيد الأعظم للقلوب، الألعن للنفوس.

(٨)

كان قد جاءنى العجوز بذكر ما حدث لهما، على نحوى يُفيد بأن أنزع قلبى من مرقده، وعقلى الذى أحسن بها بعد أن أدلت له بشهادات أخيرة. بوعدت من أمى على ذكرى لها، والترحُم لأجل قلب والدتها المسكين. حينها أخذتنى جوانب الرعايا بأمى فى طلقات الاستعانة، مع ادخار جانب آخر من التفكُر والاستقراء لوضع الحال. رجعت للقلم بعد ردة من مكث العقل فى ظلام، بدأت أحيل أسطرى لهنا وهناك مع إطراح أفكارى فى عواميد عدة، قد منحتنى عُريًا فى المقام، فى نظر من عاهدوا قلمى. كان قد منع أبى النفقة العامة والخاصة حتى حفى الادخار عن مُؤشرة العامل بالزياد، إلى أن قل واستخفى بحياء،

لعقاقير والدتى اللازمة، وللجوع الذى بدأت تعمل الأمعاء على ذِكره بدورات مُتكررة، عِشنًا شهرًا على التمر والمياه وحفائف من الخُبز المندثر بمغلى ماء مُطعم، من مبقى أسطرى التى تتدفق، لمواكبة مُستلزمات الحياة. إلى أن بُعث لى على الإرسال من الداخِل، كضيف كقصير لتحليل وضع العيش فى زهد وطنى الباق. حتى استدعيت لمنابر عِدة وسط تهديدات للترفع عن الخون والوهدان لأجل مقام والدى. وبعد مطيل من الإنذارات العابثة، الذى كُنت لا أرمى عليها الجدية من حوب أسمى لضوء أبى، الذى تنازل نهايةً بإلحاق الكفوف على أمام أعيُنه المستطيلة بنُصح وإحسان. كُنت قد خُضت تجربة بُعدًا عن والدتى هى شبيهة بمظلم هذه الحُجرة لكنها كانت بعقد ليلتان، بعراء البدن الذى نازع قُرصان البرد، كجرس إنذار أخير لحياة والدتى القعيدة ولأمد أنفاسى القادمة. مما كانت الوحدة غنيمة عن كُل شر، آنستها الروح التى استطالت فى رعاية والدتى، أثناء تنزهى فى رحم الوطن المعنى بصوتٍ واحد. فقد تعرفت على راصِدة جديدة تقطُن فى مُقابِل الشُرفة، رحبت بى بعد إلقاء تحية الكفارة، فهى التى كانت تمكُث مُنفردة مع صوت فيروز بمنابعه الذى كان يستقوى بالليل الحزين.

- جلين عوض، ذو شفرة حادة تطنبِ كل مُستظهر بالحُب، ارجوانية المظهر بجمار يلهف كُل صادئ، قد ترونها راقصة بالية لرشاقتها، ولكن الأمر مُضنى على لطبيعتها الغير مُكتسبة، بوجه يُبعدك نحو القطب الشمالى لتتجمد من نهم النموش دون العيون التى تصدع لك بانشقاق، اتزانى لا يحتمل، وانغوائى عليها قد طرد عزتى إلى الأبد، محل ضعفى، ومصدر هلاكى، ومُستقر جحيمى الذى لا يُرحم. كانت تُلبى طلبى دون غياب أو قُصر على المجىء، لجولة كُنا نعتمد من خلالها بذهاب الجسد والروح، تمتد للصباح وكانت قد تتعدى للظهيرة حين نستلقى بغفو. لديها معى براءتى التى ستجُب يومًا ما سوءتى معها دون سوءتى مع الغير، فكُنا روادًا عن كُل شىء لديه اسمًا للخير والشر، إلا أن الفعل الأخير كان يتناوب على كلاهُما. مئة عام من الغفلة عنها وإدراكها المفقود. تمتاز بوهج وصمت مُتكلم دائما، وحديث بلا تلوث وإن أخترق ذنوبى الصادرة منى، كسرتنى للإصغاء بفكاهتها الحية نحو أمى، وصمتها المملوء بالحديث لها وكلامها القليل معها. رأس مُنهك من التعب والعُزلة عن تجميل الوجه، لكنه تطلى بطبيعة لم يُسبق لها مثيل، حيث سواد العينين الغليظ الذى لن يخفى إرباكك، وبقية الوجه الذى تتحدث عنه الروح، الرقيقة المُعبرة، البسيطة المُنهمرة بسحر يُعتِق ملامحها على الغير، الجسد

عفيف وخفيق عن كُل إثارة، لكن التطاول بالأثر الذى كانت تتركه بى، ثياب جارية مجرى الشابات غير حديثى الولادة، البائعون لعصر... يجب الاطلاع على. حسائها ريحٌ غائلة بشهية أصبحت تأتى به بمساء كُل سهرة، أخذته عن يديها الحاملة من استطلاعى لها، لعينيها، لا تدعى الكسوف والخجل أو حتى الهروب بحياء، من بريق غير مُتعفِف يتعدى عليها دائمًا، لا تُشبه النساء المُعتادات، ولا أعلم من أين جاءت، فكل ما أستطيع أن أصدقه وأسلم به أنها هبطت من السماء. وجودها قد منح لى تمويهًا للخروج عن مرصد والدتى، والرجوع مُجددًا للبحث عما قاله لى العجوز.

(٩)

عج نبأ عظيم بداخِلى مُنذ أن بادرنى العجوز بإرشادات ثكلى التوضيح تليق أن تكون اعترافات لها عواقِب وخيمة لمكانة من يحيون بداخِلى. كان هذا الشك النابع من خاطِر رهبة يملؤها دلال الخوف، فكُل الأشياء بدأت تتأجج ببركان حاد حتى أطلقت سعير ألسنته على أقرب من كُنت أكن لهم بحُبًا مكنونًا. فما بال والدى بجى الذى لم يطرأ فى قبيل حياته طُهر، ربما ملذات الدُنيا تخول لك بأن تخون، لكنها لا تستأجر لصاحبها بضمير يغيب عنه التأنيب طيلة دهر. وما أحدثه أبى بمن أحب، قد هُلك أمامه قبول أعذار غائبة وإن كانت لم تتسن له فى براح مخيله. أخبرنى العجوز بالجانى

الأعظم، عبر اعترافات المجنى عليه قبل أن يُذهب به. وما بدى لى فى جريمتهما معًا إلا براءة لا أستطيع أن أدُق بابها. فالحبيب أخبرنى بما وقع عليه، دون أن يُؤتى على شىء بما أوقعه على الغير. شرائطها التصويرية كانت عزاءًا قهريًا لابد لها بشاكرة من السعى، لتأبين من يحيا فى خِيام الفُحش والآثام. لم أستطع أن أخبر والدتى لتتخذ واجب عزاء وهى قعيدة لصبر واحتساب، على ما فعله والدى لها فى نهب واستجلاب، شلل نصفى مُضاعفًا فيه، من خيانة دون تبعية للومٍ أو عِتاب، سقطة مُرضية لشفاء أنانية يحدُها عذاب، على طرفٍ ضعيف لم يُحتسب له خاطِر من حُبٍ أو إعجاب، كُل ما ترتضيه من مقتٍ وكُره لأجل مآب، من دُعاء لم يُرسل حتى الحين له جواب. خولتنى أمى بمسامحة كما كانت مع حذو أبى معها. جانبِ إقرار غُفران لمرور يديها على وجهى فى أمسية كُل يوم، وكأننى لا مأخذ لدى لعتاب. وما كان للأمر إلا أن يتضح له فارق، فما كانت الفُرقة بينى وبين أبى إلا أننى كنت أستجيب لمرور يدها على محيا وجهى. قد بدأت أعى فى مسجنى ظواهِر أشياء لم أكن أراها، وكأن العُزلة عن الحياة بُعدًا عن الجهولية. ما ظننتُ أبدًا مُضى أبى المدعو من قِبل أمى لتِلك الدنوءة، على الرغم من سماحتنا لسقطاته العابرة يومًا تلو الآخر. فلم يدفعنى تركه لى أبدًا على طرده من دواخِلى، فكل الأفعال مرهونة

بضمير يُؤنبِ شِرارها ويلقى بالمدح على خيراتها. إلا أن إماتة الضمير كان صفة أفعال أبى المُتوارية. سخطًا تلو الآخر لمشاهدتى له من شرائط تسجيلاتها التى عثرت عليها وأوضحت حقيقتى من نبعٍ مجهول. أرى حياتى السابقة وهو يستأصِل الأعضاء من صِغار الأشبه، لا يتعدون خمسة عشر عام فى مُقابِل ملجأ يقطِن لهم عيش غير كنف الشوارِع بمراحيض لوثها المُعتم بوطن لم يلقى بعدسته لجنود له بلا مأوى. تِلك الجريمة الذى ما زال يرتكبها خللا من عقل قد التمسه جنون مأسوى، ذلك المرض الذى أخفته والدتى عنه قبل أن تفِر بهروب. جنود بلا اسمٍ ومأوى لا يُلاحقهم، تحت ترحيب دائمِ لانتهازيين تُماؤِلهِم، بقبيل من المال والعرفان تُعاكِفهم، فى سيل اللؤم والنذالة تُجانبهِم، من نسيان وطن أمى لم يلقى ببال مثواهُم، بوجهة مشرق ومغرب فى ضواحى لياليه منامهم، على ملقى أرصفة وخوارِق كبارى معزتهِم، تشهد فيهما أحلامًا خامِدةٌ، بطيل عسى أمان فاقدةٌ، لا يُستبرأ فيهما أمل، ولا يُحتمل فيهما حمد، فلا موجِد لنعمة كى تعُم، من حال وطن لا يعرفِ إلا الغم، لا نستعيذ منه كى نفرح، بل إيعازًا مِنا لمطرح.

(١٠)

ابن شارع من مُقتبل الرضاع، فى كنف الليال والنهار، كُنت أجول صباحًا للظهيرة، لملء مخزون الحظيرة، من عباءة اتخذتها كوعاء، لدخر مُخلفات الأحياء، بلاستيك وصفيح، وطعام لا يُستشفع له رائحة، لكنه يستجدى ببقاء لازِم، للاستقواء لعمل ثان، حين معالجتى فى ورش جمع القِمامة، أينما يُعاد تدويرها تدور معها صحتى بحثًا عن استنقاء. أشرد قبل حلول الليل، فى سكنى وطن حضيض، يجمعنى جِوار بقايا الدُخان كطرف بديل، لا سبيل لى لاستيطان بُقعة، من حملة دورية تُراوِد كُل شُفعة، فأمر التسول قد تحول، من حقوقية إلى عقوبيه، قد تزيد من ثلاثة إلى ستة أشهر لعقاب فحشائى

يُنازِع من روح كُل قانون. أُحمل فى قفص عزيل، من كنف الليل العميل، فلا مقصِد فيه لاستئجار نوم، من حملة دورية تستلقط كُل طُعم، أطفال بلا أمل، من بلوغ لا يُحتمل، تنتهزنى الشفقة، من دار الأيتام، لحلمٍ يُريد أن يتحقق، كاكتساب وصف الأمومة والأبوة، لأحدين يتطلعان، لغلام لم يبلغ ثمان أعوام، بلا جذور أو حمول، من أبٍ وأمٍ لا يلتقيان، لنهاية مصير الأيام. أخذونى بحماية وتطلُع، من أم مُدعية، وأبٍ مدعوا من قِبلها، لتحقيق سيرٍ جديد. مُلكت اسمه، من زعاج زوجة لا تريد، إلا مُحاضنتى ليل نهار، كأعجوبة من قمر، قد أنارها واستتر عليه عقمه، لمثاب كذوب، فأنا الولد، من قِبل أب وأم قد رجعا بعد هِجرة، من يأس أمل قد انتهى، من خِلفة مُستقبلية. قد نمت أعمارى عامًا تلو عام، كضيف ذو ترحيب دائمٍ، حتى نسيت أننى ابن شارع. أحببت أمى التى ضمتنى دائمًا، عن رياح أبى البعيدة، فما كُنت أغير عليها من قُربه، حيثُ الوِصال عدِم، إلا من حيرة تُراوده على كشف الأمر، فأُحمل على يداه، وتُقبلنى شفتاه، حين إعلام الزائرون بأمر مجيئهم، أو حين الاحتفال كُل عام بذكرى مولدى الكذوب. لا دراية لى بعالم مُخِل، فما كانت ترعانى إلا أجواء ترانيم الدُخان والحرائق ليل نهار، وهذا المرعى السكنى للوطن ما كُنت أشكوه حين بلوغى لهذا السِن الذى بلغ عتابه فى سجنٍ

لا حمد له، أو شُكرًا يُلقى على بال مثوى سُكانيه. فالرقصة مازلِت أتلوها فى عِزٍ وانتقام، باستخفاف لوطن جانبه عُريًا فى المقام، لا إنسانية تحوطه فى اتساع حلقة، فالدائرة لا تدار إلا على من يُناشِد فى مشقة، احجرونى وانبذونى، عن كُل هوى ونسيم فى محقة، فأنا ابن آدم استحِق الهواء، دون البرد السيوف والحرارة النافِذة عن النقاء، فجدران الحُجرة بارود، تحمِل معها مدافِع من صهر جهنم ولسان حال شمس قد استقرت فى سبات، لا مضاجِع إلا من ورق اتخذته فِراش، يأوينى لبقاء حى فى استشراء، لعبودية وذُلٍ يستدرج لعراء. أنا ابن آدم من ضِلعه، وأنت أخى من نسله، وأمى حواء لم توجد إلا بإيجاد الرحمة والحنان، ذات رسالة وتبليغ، عن إيجاد حُب وذرع آدميه فى نفوس، لا تُملك ولا تُستملك، فقضى نحب عصور الظلام، بعد عاصِفة من عِلم ودهاء فكر وجهابذة يحملون الأوطان، استشرقوا عيون العالم، فى دِراسة واستيفاء، عن ظُلمٍ لا يحمل معه إلا استياء. ظواهر بدنى فى حُرقة، عن تبع أمراض اكتسبتها من جمرة، آتتنى من حرارة دون صفاء، وإقلاع ضمير لم يبطئه اعتلاء، من تأنيب والتواء، لجهل عقل فى احتماء، على أن الحُرية مكسبه، يمنحها فى مأدبة، قد سبقها قتل حى، فى بث قد تبين منه على أن المجرم حجرًا لم تخفه رياح وعوامل تعريه من ظُلمٍ بغى، قد قتل حبيبة فى تبيان،

بعد رصد عدسة أدانت قانون موجه، لإباحة وطن عزيز قد ضمره فاكهون من قتل الأحبة، اشتروا قمعًا وسخطًا، نحو آدميين قد خلفوا لعنًا وذُهقًا، فالعبودية تُستحق خلف طرد أرواح نادوا سِلمًا وأمنًا. لم يتوقفوا عن هذا وذاك، فبعد إقلاع روح الحبيبة، كان لا مدرى للجسد فى زمان أو مكان، قد حفرت الصحراء فى ضيعة ظلام، للبحث عن وضيعة جسد فى استسلام، فى كُل طُرق ومخاف جِبال، وشُحن مُخلفات أقوام، كعهدى الزمان. قد ناديتُ ربى ولم أستودِع لجسد روح فى بُعاد، عن لقاط العين واستقواء احتمال، آلفنى شكوك من أخبار، عن حرق أجسده فى غبار، قد غيمت السماء، وأحلت قطع الأمطار، عن كُل الأمصار، فالسُحب كظيمة من الغيظ، لضمير لم يشفع عن حِراك، لمطالبة وإجراء، ومحاسبة مسئول عن إهدار، لكن أخلاق العبيد لم تأبه طرفًا لاستعمار. ظللتُ وحيدا، لمكان بعيد، فى عُزلة انتصار، ومقاطعة أخبار، حتى حل النداء، عن فرضٍ وأداء، لعبادة رب فى استعلاء، على الدعو لنصير مظلوم، وهلاك ظالمين فى سجود، إلا أننى لم أسمع إلا تسابيح فى خلود، فى ألفة لسان قد أعتاد، حتى جن عقلى فى خروج وعناد، عن صلاة وأداء، فالرب لا يُريد منى عبادة لحقها خلوٍ من الخشوع، دون عُهدة لأداء صلاة عن واقِع وجود. قد رُميت على عتاه، لدى قومٍ سُفاه،

بأن الجنون يعتلينى، فى تنازُل عن صلاة جُمعة ودعاء وجيد لثنى الرحمن. نبشتنى الأفواه ظهورًا وكرمًا، لزيارة طبيب، كى يوقع دواء، دون تطبيب للروح. أخذتُ بالبطش والعتاد، لمخالب من ألسنة ومعارك كانت وقيعة لقومٍ بُلهاء، مُسيرون مِن قِبل أعداء، أخذونى فى بُرهة، حتى لقيت والدى مع ذوى الترحيب من لواه، يستفتون أعمالى بصعقٍ وعذاب، فى ثمن تذكرة إيجارًا لشُحن من كهرباء، وحمل ثقِال على ظهرٍ ميال. لم ألق معاتبة من والدى سوى صمته على مشاهِدة الإذلال، وكأن أفعالى شيع من أوزار، فقد أضرت مواطنين بإقرار، على أننى نازِع للاستقرار. فالوطن مقرون بنعيم وسلام، عن ضير الحرب والاستعلام، لظُلمٍ وبأسٍ لم يُنقب له أفراده عن ضِلع الأمان. ها أنا ذا أيها الرجعيون الحقيقة ذو الرهينة الغير مُحتسبة، لجرائم سبقيه لوقائع مُكتسبة، لم أحصُل على جسد ضحية مُنتسبة، لحرية فُقد فيها الأهلية، فى خيام واقع تعوله العبودية، والسُخرية المُتماسِكة كحضارة فعلية، غاب عنها كُل قيم إنسانية، واستطال عُمى فى مسيرة وطنية، قد أعلت راية خطية، لمستقبل يغوله ماضٍ ورجعية، لأذون قرون وتفرقة جسدية، لكُل ألوان عِرقية، فى اجتماعات سرية، عن هذا عميل وذاك مُناضِل بجدية، يدعوا فى سلام وأمنية، لتحقيق عدالة انتهازية ،كى يصفوا عشرة ومية، يحملون البلاد والعباد فى

سفينة تُجارية، تحمِل مُؤنها ثروات وخدمات إضافية، لعبور الأمواج العاتية، كمعارضة هامشية، وسحل لعكاز استقرار على أرضٍ قومية، بحجة نتاج وقرارات اقتصادية، تأخُذها الدولة كإتاوة عُرفية، لفتوة يحمى الحدود ويستقطِع من كُل معابِر مائية.

(١١)

تعلمتُ حرفًا وكلمة، من زخم مكتبة والد أمى المُستلمة، لاستنساخ دموعى على حبيب لم ألق بدنه فى منمة، يُنادينى فى حِلمٍ ويقظة، ابحث عنى فى كُل عتمة، فخبايا الوطن مُكتظة، على سُبل وهوى كُل قاصٍ ومُرتجعة، لفصول التاريخ المُحتملة، ونبوءة كرارة اللحظة، أن اللعنة لا تُصيب، إلا القوم الذى كان ضميرهم لا يُنيب، كُل وقع على الغير وملاقاة الدافِع بكُل وجيب، من طاقة وتغيُر يُطيب، لُكل من لمسه جُرح واحتساب أمل أصبح لا يستجيب. مُناشدة طارِئة لإيجاد نظر، نحو ضمير أرجو ألا يكون قد عبر، كجسد حبيبة فى مُختبر، من عدسة ولقطة، لبث محطة، كان بها جمع فى قراءة قُرآن،

ذو سِلاح عنان، بتقوى وحنان، لمجرم وشاهِد عيان، أن ارتقوا عن زمان، فرعون وكُهان، اقتل كُل طفلٍ فى عامٍ دون عام، كيلا يأتى الحِلم فى منام، بكوابيس تهِد العرش والطُغيان، ذرونى أقتُل فى كُل مكان، فالشعب عبيد، والعرش يُنادى بأمدٍ مزيد، والأرض حصيد، لدماء كخمر فى كأسٍ مريد، تُثير لعابى فى مرح وسعيد، فهيا اشدهوا رأس كُل عنيد، لم يقر على أمرى السديد، لمستقبل بعيد، تزهوا به الحضارة فى سما وسُحب عديد، تُمطِر خيرًا ورزقًا شديد، دون مزيد، على حادثى العهد الجديد، صاحبى الرأى والفكر السريد، ومن يدعوا للنيل من كُل عتيد، قد حافظ على أرض الوطن المجيد، اعقلوه فى عدم، عن كِلفة من إنارة وعلم، لجسدها الذى لقى منى استباحة وظلم، طيبوها بالرمال، فى سطو الجبال، ثُم أهيلوا عليها شيئًا من رُكام، كى لا يعثُر عليها من هيام، قد على الحُب والعِشق السيام، فى دُنيا قد لحقتها الأيام، بسيرة لم تخلوا من سلام، عن وقف حرب ونبأ لاستعلام، لفراق قد جرى عليه ذكرى من زمان. سأبحث عنها فى كُل مكان، لإدانة وطن جريح قد بادِر فى انقسام، علوًا على أن أصحاب الصفو الكِرام، قد حملونى جنونًا سيعتلى المشهد لأعوام، لإطلال بطشى وجهر فحشائهم بإعلان، على عديد من الحمقى قد تشفيت من عورات أبنائهم بانتظام، لرد شرف حبيبة لم تستعلم يومًا

عن فُحش الأوطان.

(١٢)

لم يعُد يجيء الصباح، فى خلوٍ من التقدير لصراخى الذى صاح، ودموعى من جسد قد دفعه الألم لتهدئة حُرقته ببحث عن رؤيا لمصباح، فقد تم حجب نظارة باب المعقل الذى كان من خلالها يأتينى الخُبز المُتحجِر المُهيأ لحيوان قد نفذت عنه حبال طاقة مُستقطبة من أمل قد فورِق عنه بتخلُف دهرًا من الزمان. أسير مُتمشيًا وأنا جليس فى حوار ذاتى بموجب مترين طول فى عرض مُضاعفة لا يُزمِن عن اتساع، لضوائقِ من ظلام قد تم عُهدتها فى حُجرة ماقتة خانقة لحدود فردين متلاحمين كقطبا من وقفة أتوبيس يُنادى فردًا يساع، براكين من الحِمال فى حرارة قد ابتاعتنى فى سوق

عبيد لملك قد أقر على شرائى لإيداع، فى حُجرة زوجية الطلب لمتغيرات مُناخ على جسد يُشاع، ببرودة سيافة فى مهد عام، وحرارة مُعلنة بإحراق نبات جسد قد وهنت عنه جميع الأعضاء. لا طاقة لى من حِمال لرفع راية استسلام، أو تجاوِب من لسان يندلع بالقول لما يريدونه من جرائم لم أسمع عنها من بعيد زمان، فقد أعلن عنى هيكل جسدى لتعفُف بدنى لقبيل من خُبزٍ مُعتاد، فُقد عنه كل شهية ودفع من جوع جواب، فى ذهول من غياب وزنى الذى كان فى أعتاب ثمانون كجم، وعلى ما يُرى الآن بعدسة عينى أن ثقِله لا يُناسب غُلام ذو عشرة أعوام، فقد فُقد عنى كُل أوزان فى إخفاء قهريًا يُسارِع من هطول أحزان، لا أقدر على حِراك لمسيرة مترين كاستهلال نية مُخففة عن كُل ميعاد، لم أبتدئ لحركة إلا بزحاف أنصاف أقدام، لمناداة بعيد لم يلقى عتبة من إيمان فى توحيد رب لا يعرفه سجان، وهائنا سألقى بيان، بقطع شرايينى من أسنان، فى معاودة انتحار قد يُلقى بها ملك الموت نبأ لإعلان، بأن العبد قد أبان، بضم المشرق والمغرب على جسده الضعيف دون حُسبان، من مُغارقة جهل فى عصرٍ ظلام، فكان الصباح فيه كالمساء، دون إنارة أو إلقاء نظر لإحسان، لغلو ضيق أمره بفُقدان مُتع حياة، كهواء حُرٍ طليق، ومباحثة من صباح ملىء، بتفاؤُل لكُل نبأ مُحيط، على

ضوء طلوع شمس وغروب لا يحمل معه فُقدان قريب. كان قد أتى الصباح، مع إتيان صياح، لمحاولة انتحار لم تُجدى شيئًا من نجاح، قوبلت بلكم على العِظام، كضريبة لخلو اللحم من سريان، فلم أقتدر على استئصال، كان قد سبقه إغماء. وفى محاولة من النذير، وإفادة من التعاون اليسير، قد تم اقتراع لبنود من التعهُد، بمقابِل شيئًا وفير، فى سبيل إثبات حسن السلوك والتقويم. ومبادرة لإعلان، باعتراف تمهيدى لجرائم لم ألقى لها بحسبان، تأخُذنى دون وفرة من طعن على حُكم نحو حبل الإعدام، ودون مجابهة من تصديق لأمر المُفتى العام، فأنا ابن شارع قد تخطى حقول ألغام، من بينها فساد الذوق العام، وشيئًا من سبيل ازدراء الأديان، وإشهار قضايا لأشخاص اعتباريين، عُكاز لنشاط الدولة وسير للاستقرار الأمين، ومن بينها إساءة للنيل من رموز الأوطان، فى سند من مقالات ومكاتبة مدفوعة لعمالة خارجية قد أعدتها البلاد فى قانون عِقاب، إضافة لارتكاب آثام مُغلظة مع قومٍ عظام، بإعلاء فاحشة أبنائهم للرأى العام، بعد انتهاك أعراض، وإذلال لإشهار، لجماهير مُتأهبة خلف شاشة الانتظار. عوضًا لإقرارى فى مسك الختام، على انتحار حبيبة بعد طول فُقدان، يئسًا من الحُب والحبيب الذى أصبح يُستهان، من مُجابهة الفُحش عليه وعِتادُه للنيل من صورة الأوطان.

(١٣)

نهضتُ بعد إعلان القوم مقال الكتمان، لتشييد حالة حِداد جماعية نحو ضحايا الأوطان. استخلفت لرعاية أمى، ناظِرة الجِوار، لرحلة أعدها طِوال بعد غياب حبيب قد فُقد عنه الأخبار. وفى تمشيط يُعد سيادى لميادين قد زهُق روح أجوائها، كان سيتم إلقاء حتفى على الفور بالرمى بالرصاص لاستعلامى عن ساكنى البارحة، الذى أصبح ما تبقى منهم جُثث هامدة لعديد من المساجِد المجاورة. لم يكُن للفزع أن يُلقى برايته، حين إشارتى لإزاحة علم البلاد عن وجوه لعدد ليس بيسير من النساء المجهولات أسماؤهِم. مشاهدتى لهطول دموع أهال الضحايا تستغرق عقدًا من الزمان بإيقاع حزين

للبحث عن قطار محطة وصولها، وقهر العواجِز من الرجال قد أضاف معها يئسًا سئيم طيلة دهر، بوطِل كُل أمل للعثور عليها، بعد تنقيب لثمان أيام عن كُل مكان مُحيط لأجساد مُتردد وصولها لهنا وهناك، وكان للعجل أن ألتقى لبراح الميدان الذى خلفة نفايات تنتظر شيئًا من إجابة لعاملى التدوير والبحث عن إعصار يُدلى عليهم بورقة من النقود، فلم أستطع أن أسقط قدمى للميدان إلا بثوب مهترئ فى صورة باحِث عن بواقى نافِعة من قِمام. وكأن مواطِن أحداث الصِغر تتلوا على لسكنى الأصلى الواجبة لمثلى فى عُهدة هذه البلاد. ابن شارع أجول فى اقتياد عربة، شحنًا لنفايات تُعلن مصدرًا لتمويه، عن عاشِق قد تجمهر فى ساحة أعدها التاريخ خلود، وسط تحليق طائرات وإعلان حالة مُتأهبة قد بلغت كُل الحدود القصوى، صدًا للعثور عن ثائرِ جديد، قد دفعه الوطن أخيرًا لأعتى صور الجنون. بدأت بقاطرة من الصُراخ، لم يخلو التعبير فيه عن إدانة، مع تلِقائية واجبة لنمو من البكاء غير المرغوب، حتى كان التأهيل لنهايته سقوطًا محتومًا، قوربت الأسلحة نحوى دفعًا للاحتماء، حتى استجبت لمبادرة التعرى لإفادة أن الجسم خالٍ تمامًا من مُفجِر معدوم، أحيل جسدى فى الانبطاح أرضًا كمطلب من مطالب الإمساك برهينة للعدو، إلى أن بدأ الاقتياد نحو المجهول بعد أن أتاحت السُلطات المُوقرة لأفرادها الإبقاء على

الرهينة فى سكنى الوطن المعهود، لأجل غير معلوم.

(١٤)

أُعيد تأهيلى فى سكنى الوطن على نحو يستدعى لشىء من الخوف. بدأ النُطق يفقد دوره الوظيفى مع مسيرة الأيام، حتى صاحب ذلك خللًا آخر من نوبات صرع ذو وتيرة غير مُتباعِدة بفضل عامِل الزيادة من الرضاعة الدورية لأكُل الكهرباء بين كُل حين، فما كان من عتاب أن يستفرغ المُخ نسب الحمولة الزايِدة عليه بطريقة شرعية مُستحقة. يأتينى الصرع كُليةً وأنا حبيس فى حُجرة أخرى أربع فى أربع حسب تقدير ذراعى، لم يخترق حصونها إلا نور يُدلى من مُكعب عال، كبُرجٍ عاجى لا يشع منه النور إلا بقابلة عامودية تأتى منه الشمس فى صورة غير مُنتظمة، أحتسب فيه مجىء الفجر وهروبه الغير معهود. كان لا

يتِم التعامُل مع أحجية الصرع إلا بتركٍ مفقود، رغم سماع الحارِس الذى يخلف عتبة الباب مُباشرةً، لشخررة واختلاجات أعدُها من قبيل جمود ذراعين وأرجل فُقد فيهما الحِراك بدورهما الذى أعلنا إشارة توديعٍ حام. يتشنج حلقى مُعلنا تناوبات من إخراج لعاب، وبول إرادى يستعلم به المُترقِب أن الخوف الرجيف قد واعد كُل اتزان لا يُستتاب. يُرد إلى الوعى من منح الله الذى أستوجِب شُكرها بعد قريبة من عشرون دقيقة أو تزيد من إعلان الصرع أمر القيادة. حتى يُبادرنى على الفور آلات حادة من نظارة الباب كأمر انتقام من تشجيع وكُفر بحياة الله لأتخذ قرار انتحار ينتظره أسياد قد تآمروا جميعًا على فردٍ ضعيف لا ينتظره سوى القتل بالبطىء. وكانت إجابتى رقصةً تتلو فى عِتال، كطير يُحلِق داخِل سمائه الرابحة فى علال، بُعدا عن سجان قد جانبه يأسًا ومقتًا لا يُزال، من ضير حورية تُغرِد بعيدًا عن سربٍ يُقال، بأن الطريق ينتظره إشارة تُباع، كمُلحق طلب من سيد قد أقر على أمر انتهاج، لكن غلو أمرى قد أشاد، بأن الأمواج العاتية لا يرهبها بحر مواج، يضيف عليه ريحًا من عاصِفة تُباد، بإفادة تيار يزيد صدًا كُل وطأة من اختلاج. وهائنا أقر أمر احتشاد، داخِل ميدان سجان، أصابه ضِلعًا مفقودًا بعدم اتزان، لمُلاقاتى وفرةً بكُل طاقة واستعان، على يسار قدميه أسلحة وأعوان، ويمين

معزتى نُصرةً من قلمٍ لا يُستهان، عن سُخريته لحال عبودية وامتهان، يُضيف أثرًا بعيدًا لحقول ظلام، لا يُبيت فيه قابلية لحُبٍ وسلام، وأنسٍ لإختيار أمان، تحقيقها يتطلب خروج العوام، قبل أصحاب الشرف الكِرام، فالجوع لا يطارد إلا كل مُستلزمِ بخُبزٍ وملحٍ وبقية مِن طِعام، يُبشِر بنبأ غرام، على توقيع عقد مع عاهِرة ينتظر مفاتنها أقوام، كُل ليلة ذى ساعةٍ مُحددة تُحيلهم بسُكرٍ وغيام، تُنسيهم صباح عارٍ من الصِحة والاستفهام، لمشقته ومجابته للأحزان، عن ذاك قُتل وذاك أصيب بحبسٍ وانفراد، مُضى قُدمًا للاستفراد بالأعراض، ومباحثة شفهية لخلع ملابس دون اقتراض، بتهديدٍ غُلامى على أننى آتيك باختيار، دون أن يحيل بينى وبينك أعذار، فأنت ذبيحتى فى يوم عيد، يستخرج منه نبأ سعيد، لقهرٍ نفسى داخِل حلبة قوامُها سواعِد عبيد، فهيا نبُث للعنان، باعتراف وجدان، على أن حبيبتك شاركتك فى سرير وأنت شاهِد العيان، قبل أن تجىء للحشد الظلامى لأخذ لقطة من عمالة خارجية تنتظر انهزام الأوطان، وها نحنُ قد عاملناها بكُل إحسان، حين أعددنا لها بطريق للخروج بأمان، ليس كأصحاب الأخدود، بل أننا قدرنا مخارِج للحدود، إلا أنهُم قد أوقعوا مِنا الحشود، فلم يُكن لنا إلا التعامُل بآلية وحسم، لا تخلوا من إرادة وعزم، لتصفية هذه الأوباش فى نسفٍ ولكُل عسيرة بحزم.

وأنا أقر لك بأن عاهرتك لم تأتنا فى مِرصاد، حين كُنا نخلوا مُخلفات الأفراد، وأنت قد تبينت حين خادعتنا بأنها خالية من عثور، لدى معالم الميدان، لكنك صرخت كالجبان، لتحيل علينا ظُلمًا وعدوان، ولا قبيل لى بحلمك بأنها تأتيك فى منام، فهنيئًا لمثلك خيانة الأوطان، ولأجل ذلك ستتلو البيان، فى اعتراف مُسجل كالبث الحى لغرض توضيح بعض النُقاط، أولها تصوير مُقدم لهيئة عميل فى صورة نزيل، وأنا أعدُك بأن الغياب عن والدتك لن يطول، لكن قبل الرحيل، أود منك اعتراف جدير، لما أُسند إليك حتى يستطيع أن يُشاهدك أبوك ويعفوا عنك بالتوسُل لرفيق زميل، وقِف الآن بتماسُك واستعِد لبدء التسجيل، ما هى قضيتى أيها الرجل الجليل، أريدُ أن أطلع على ما نُسب إلىَّ من أمر ثقيل، فهيا تعُدنى بالاطلاع دون تحويل...

(١٥)

فى الآتى القريب، سيُعلن جسدى لسبب أو لآخر بوق الرحيل، لمكان بديل، لا يُستشعر فيه زمان، أو ظُلمٍ وعدوان، على خلفية بدنى الذى سيُلاقى حينها حِرمان، لكن بعض الصُحف قد تهتم بعد فوات الأوان، على أنه تم التعامُل مع حُرمة جسدى لعديد من الأطروحات، تقديرًا من نهج لم يبحث إلا عن مزيد من مُخاطرات، متنها، أحيلوا عليه الرمال، فى جوف الصحراء، وطُرق العراء، أو طهروه بمصارف الرى بالمجان، ليكون التشييع طُهرًا بعد وفاء من ترانيم عزاء، لكن الأرض ستكفُل شهادة مُفاده عدم أكلى وحرمة مساكنة جوفها انصرافًا عن العراء، ليشهد الثقلين، فى الشمس الضياء، على الدليل

الساطع بالنقاء، من إطار جسد قد ترحم عليه كُل طير من سماء. سيتلو البيان... فقد أظهرت الصور الملتقطة لجثة هامدة اقتلاع أظافر اليد، لتزيد الوحشية بعراء البدن الذى لم يُخفى عن آثار تعذيب لأعضاء تناسلية، مع مزيد لكسر فى العِظام وسحجات لدى مناطِق معدودة فى أنحاء الجِسم، وكان يُرجح أن الضحية لم تكُن قادِرة على الوقوف، لتبقى لقمة سائغة تزيد من شهية الأعداء، وقد أظهر التشريح الأولى، عن شرخًا بسيطًا يظهر فيه مواطِن البطين الأيسر من الجُمجمة، والذى كان مفاده إحداث نزيف داخِل الرأس التى لاقت عاملين من الحرب، أولها الحرب النفسية التى آلت بالضحية نحو التمرُد عن الاعتراف طيلة خمسة أعوام، وثانيها حرب الخلايا التى أحدثت طفرة نوعية لنضال غير مسبوق قد أوقفتها مبادرات التعذيب الآلية بالطبع للقتل البطىء. ونريد أن ننوه، للبيان الرسمى من المصلحة الذى صدر من مسؤول داخِلى لا يُود الكشف عن اسمه، أنه قد تم إطلاق سراح المحبوس احتياطيًا قبل عشرة أيام كامِلة، من عفو رئاسى شامل بمناسبة حلول تلِك الأيام المُباركة، إلا أن الأعداء والذى مازال منهم يتستر بالداخِل، قد أراد إحراج السُلطات الداخلية، وبعد الإمساك به قد تبنى تنفيذ تِلك الجريمة الشنعاء، من سير المجنى عليه السابِق لشيوع الفاحِشة بين طبقات

المُجتمع لتكدير السِلم العام، وقد تم اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة نحو المجنى ومنها عرضه على النيابة التى ستُباشر التحقيقات بدورها المُعتاد...

تمت.

موسوع الشُكر...

للكاتب - بلال فضل، لنصائحه الغالية، لن أنسى

(اكتُب من قلبك ولا تُفكر فى النشر).

للكاتب - عمرو حسين، وإن كُنت قد شغلته كثيرًا فى رواية أخرى لم تُنشر حتى اللحظة، لذلك وجب الشُكر من باب قبول هذه الرواية!

إهداء خاص جدًا...

للذين لا تطلع عليهم الشمس، وكان نهارهم لا يختلف كثيرًا عن ليلهم...



تواصل معنا :

01067000701

E-mail:-Fasla.Pub@Gmail.com

Facebook .Com/Fasla .Pub